القسم الثانى

ضد المعتقدات التقليدية

obeikandl.com

العقل الذى يبنى

(صورة غلاف القاموس التاريخى النقدى لبيير بايل . روتردام ١٦٩٧)

obeikan.com

الفصل الأول

العقليون

إن مجهولا يدعى العقل قد حاول منذ سنين أن يقتحم كليات الجامعة قسرا، وأراد أن يناقش أرسطو وأن يطرده ، بمساعدة بعض النكرات المهرجين الذين يلقبون أنفسهم بتلامذة غاسندى ، وديكارت ، ومالبرانش ، أولئك المشردين . . .(١)

وكان هذا صحيحاً . فقد دخل العقل المتهجم إلى المسرح ، لا ليناقش أرسطو فحسب ، بل كل من فكر وكل من كتب ، وهو يزعم أنه قد أزمع القضاء على كل أخطاء الماضى ، وبدأ الحياة من جديد . ولم يكن نكرة مجهولا ، بل كان الناس قد استشهدوا به فى كل آن على مر الزمان ، ولكنه كان يتقدم فى وجه جديد .

فهل كان العقل يدعى أنه العلة ، وعلى الأخص العلة الغائية ؟(٢) — كلا لم يدع ذلك . — أم كان يدعى أنه مقدرة ؟ تلك المقدرة التى نفترض أن

---

(١) فرنسوا برنييه وبوالو ديسبريو Boileau Despréaux ، عريضة لأساتذة فى الآداب ١٦٧١ .

(٢) بحسب عقيدة قديمة ، العقل أعطى للإنسان لكى يصل به إلى متعة المعرفة ، هى أكبر المتع وأطهرها ، فيها نجد السعادة التى هى « علة » الحياة . (أنظر فى هذا الصدد مؤلفات أفلاطون ، طبع جارنييه مقدمة . . . Préface de E. chambry . [المترجمان]

عن العلة الغائية Cause Finale أنظر القاموس الفلسفى لفولتير Voltaire, *Dict. Philos.* Fin

يقول البعض ، إذا كان الله قد خلق شيئا لغاية معينة فانه خلق كل شئ لغاية معينة . من السخف أن نعترف بالعناية الالهية فى ظرف وأن ننكرها فى ظروف أخرى ؛ فكل ما صنع كان مقصوداً ، مرتباً ، فلا ترتيب بلا موضوع ، ولا نتيجة بلا علة . إذن فكل شئ على السواء نتيجة لعلة غائية ، إذن يجوز القول بأن الأنوف قد خلقت لتحمل المناظير ، والأصابع لتتحلى بالجواهر ، كما يجوز أن نقول إن الأذن إنما خلقت لاستماع الأصوات ، والعيون لاستقبال الضوء .

« أعتقد أنه يسهل إيضاح هذه النقطة. إذا كانت النتائج واحدة لا تتغير فى كل مكان =

الانسان يتميز بها عن الحيوان ، وبديهى أن يفوقه فى ذلك بكثير ؟ — مافى ذلك من شك ؛ ولكن على شرط أن نمد حقوق هذه المقدرة السامية بحيث لا يحدها حد ولا تنقصها جرأة . وفضل العقل وضع مبادئ واضحة ، حقيقية ، لكى يصل إلى نتائج لا تقل وضوحاً وحقيقة . وجوهره الفحص ، ومهمته الأولى البحث فيما غمض وفيما استغلق وفيما أظلم ، لكى يضئ الدنيا بنوره . وكان العالم زاخراً بالأخطاء التى خلقتها قوى الروح الخادعة ، واحتضنتها سلطات لا تخضع لرقابة ، أخطاء استشرت بفضل التصديق الساذج والكسل ، وتكتلت وتقوت بفعل الزمن : فكان على العقل أن يبدأ العمل بحركة تطهير واسعة . كانت رسالته القضاء على تلك الأخطاء التى تجل عن الحصر ، فأسرع لانجازها وتعجل . وإنها لرسالة تكمن فى صميمه ، فى قيمة كيانه الذاتى .

وأسرع العقليون يلبون النداء ، فى نشاط ، وغيرة ، واستبسال .

وكانوا فرنسيين ، وانجليز ، وهولانديين ، وألمان ، يمدهم بعبقريته يهودى يكرهه الجيتو(١) يدعى سبينوزا Spinoza . وما أشد اختلافهم ! وما أكثر تعارض النقط التى بدأوا منها لكى يصلوا إلى غاية واحدة ! إن تركز القوات هذا لشئ مدهش يأسر النفس !

***

وإنك لتجد أولا المتحررين . ومنهم الانجليز ، مثل وليم تمبل Willam Temple الذى ابتعد عن صخب السياسة ، ليبحث عن السعادة فى حياة هادئة وادعة ،

= وكل زمان ، وإذا كانت هذه النتائج الموحدة تستقل عن الكائنات التى تخصها ، حينئذ هناك قطعاً علة غائية . فلكل الحيوانات عيون تبصر بها ، ولها كلها آذان تسمع بها ، ولها كلها أفواه تأكل بها ، ولها كلها فتحات تتبرز منها ؛ هذه علل غائية واضحة . وإنه لافساد لقدرتنا الفكرية أن ننكر حقيقة عالمية مثل هذه . أما الأحجار فى كل مكان وكل زمان فلا تبنى عمارات ، وكل الأنوف لا تحمل مناظير ، وكل الأصابع لا تتحلى بخواتم ، وكل الأرجل لا تغطيها جوارب حريرية . وإذن فدودة القز لم تخلق لتغطى رجلى ، كما خلق فمك لتأكل به ، وكما خلق دبرك لتذهب إلى المرحاض . وعلى ذلك فهناك نتائج وليدة العلل الغائية ، ونتائج عديدة لا يمكن تسميتها بهذا الاسم » . [المترجمان]

(١) الجيتو : الحى الذى يقطنه اليهود وهو فى العادة الحى الفقير فى المدينة . وكان أصل الكلمة يطلق على أحياء اليهود فى إيطاليا فى القرن السادس عشر . [المترجمان]

حياة أبيقورية مع شئ من الحكمة . وهناك المتحررون الفرنسيون ، على الخصوص . ولم يكن هذا الجنس المتحرر ناشئا فتيا ، فقد عمل على انتشار فلسفتين على الأقل . أولاهما فلسفة بادوا ، أى مدرسة بومبانوزى Pomponazi وكاردان (١) . والثانية فلسفة غاسندى فى جانبها غير المسيحى . ولقد واصل غاسندى نظرية أبيقور (٢) وما بها من ذرات وروح مادية ، مصفياً أفكاره — معقداً إياها — : حتى أضفى على تلك الأفكار عظمة فلسفة ليس يسيراً أن تدرك ، وأضاف لونا من الجدة والطرافة إلى نفوذ تقليد قديم . فلما جاء المتحررون يقتفون أثره ، تشكلت منهم طائفة ، أخذت تزداد أهمية ، وكأنما تزداد منزلة .

بيد أن غاسندى وقف يواجه ديكارت ، وقام بينهما جدال تبودل فيه الهجوم الشديد ، وكانت المبارزة بين الخصمين أمام شرفة غصت بالنظارة المشرئبين . وكان غاسندى يقول لديكارت « أيها العقل الصافى ! أيها الروح! ويقول له ديكارت « قل لى أرجوك ، أيها الجسد . . . (٣) »

ولقد انهزم غاسندى . صحيح أنه لا يزال له بعض الأتباع ، فى انجلترا، وألمانيا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، ولكن عددهم قليل ، وقد امحقوا ، كسفهم مجد ديكارت الذى غزا أوربا المفكرة ، ثم مجد لوك ذلك النجم الجديد .وقد حاول فرانسوا برنييه ، الذى نشر فى باريس فى عام ١٦٧٤ مختصراً لفلسفة غاسندى *Abrégé de la philosophie de M. Gassendi* لقى قبولا حسناً من الجمهور حتى أعيد طبعه عدة مرات ، — حاول أن يمد تأثير نظرية تلقاها من فم أستاذه مباشرة : ولكنه كان يعوزه فى ذلك ما فى الاعتقادات القوية من حمية وحيوية ، فقد كان يكثر من ترديد تعبير « على كل حال » إلى المديح ، وهو تعبير يحدّ

(١) كاردان Cardan فيلسوف إيطالى ولد فى باڤى (١٥٠١ - ١٥٧٦) .

(٢) أبيقور Epicure عند أبيقور ، الغرض من الحياة هو التمتع بها . فالمتعة شئ إلهى ، بل هى علة الحياة . فلنبحث عن حياة من المتعة والسعادة نلقى فيها النهاية العظمى من اللذة والسرور مقابل النهاية الصغرى من الألم . إنما المقصود بالمتعة ليس متعة الشهوات الغليظة ، بل متعة العقل بتهذيبه وتدريبه على الفضيلة . وكما قال فنيلون : إن الناس أساءوا فهم مذهبه واتخذوه مثلا على الفجور ، حتى أصبحت كلمة أبيقورى مرادفا للشهوانى . [المترجمان]

(٣) « بحث ميتافيزيقى لبيير غاسندى ، . . . » أمستردام ١٦٤٤ ، Petri Gassandi *Disquisitio metaphsica, seu dubitationes et instantia, adversus Renati Cartesi metaphysicum, et responsa.* Amstelodami, 1644 .

من التأثير : « إن فلسفة غاسندى لتبدو لى — على كل حال — أكثر الفلسفات تمشياً مع المنطق ، وأبسطها ، وأعمقها تأثيراً ، وأسهلها . . . » . أما ما كان ينتصر لديه فهو الشك : « إنى أتفلسف منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ومع اقتناعى كل الاقتناع ببعض الأشياء فقد بدأ الشك يساورنى فيها . . . » . مثله فى ذلك مثل الشاعر سيمونيدس الذى طلب منه الملك هييرو أن يصف له الله ، فالتمس يوما كمهلة ، وفى اليوم التالى التمس من الملك أن يمد المهلة إلى يومين ، ثم فى اليوم التالى إلى أربعة أيام . . . وهكذا ، حتى تعجب الملك من ازدياد عدد الأيام فسأله ، فأجاب الشاعر بأنه كلما فكر فى الأمر كلما ازدادت أسباب الغموض .

إذن فليس لدى المتحررين مذهب قطعى صريح . فلنعترف بأنهم ليسوا فلاسفة متعمقين ، فلاسفة السهرات هؤلاء . إنهم يقنعون بتصفح أشعار هوراس كأنها كتاب مقدس ، أما نظرياتهم الميتافيزيقية فقصيرة مختصرة . إذن فما منشأ إشاعتهم الاضطراب فى صفوف حراس التفكير الأرثوذكسى ؟ ذلك على التحقيق لأنهم ينقصهم الروح الميتافيزيقى . إن طبيعتهم عاصية متمردة عنيدة . وتربيتهم الأرستوقراطية لا أثر لها إلا أن تقوى فيهم الشك . فهم أشبه بتلك الروافد السريعة التى تراها فى كل مكان فى ميدان العقل ، والتى تتدفق فتوسع نهر الالحاد . عقل يدعى أنه يفكر من تلقاء نفسه ، وإرادة تأبى أن تحد ؛ أولئك ليسوا فلاسفة متعمقين ، ولكنهم « فلاسفة » على كل حال ، إنهم يعتقدون أن السر الدينى ما هو إلا لغز لا يعيننا إدراكه ، وإذا لم يدركوه فانهم لا يلقون إليه بالا ، لانهم يعيشون على هامش الدين ، لا فى الدين . مادام هناك ظلام ، وما دمنا لا نستطيع أن نبدده ، فلنستفد على الأقل من هذه الحيـاة الفانية ، فلنتذوق فى رقة ، ما تقدمه لنا من متعة ، ولنستسلم لحكم القدر . ولعل ذلك إهمال خلقى ، ولعله تفسير للحياة أسوأ تفسير ، ولكنه مذهب قد اجتذب إذ ذاك عقولا عديدة لم تكن عقول عوام .

هكذا كان المتحررون الفرنسيون : فئة فائقة الرقة والترف محتوم عليها إما أن تتجدد عن طريق المحالفة مع فئات أقوى منها وأخشن ، وإما أن تنحدر إلى التلف . وهكذا كان جان ديهينو ، الذى خلف جى باتين ودى لاست لى فاييه وترجم مؤلفات الشاعر الرومانى لوكريس Lucrèce كما فعل كثيرون غيره ، والذى عبر عن أفكاره الانكارية أحسن مما عبر الآخرون ، تعبيراً قوياممشوبا بحزن عميق :

Tout meurt en nous quand nous mourons;
La mort ne laisse rien et n'est rien elle-même;
Du peu de temps que nous vivons
Ce n'est que le moment extrême.
Cesse de craindre ou d'espèrer
Cet avenir qui la doit suivre.
Que la peur d'être éteint, que l'espoir de revivre
Dans ce sombre avenir cessent de t'égarer.
L'état dont la mort est suivie
Est semblable à l'état qui précède la vie.
Nous sommes dévorés du temps.
La nature au chaos sans cesse nous rappelle:
Elle entretient à nos dépens
Sa vicissitude éternelle.
Comme elle nous a tout donné,
Elle aussi reprend tout notre être.
Le malheur de mourir égale l'heur de naître,
Et l'homme meurt entier, comme entier il est né . . . (١)

---

(١) كل شيء فينا يموت عند الموت ؛
والموت لايدع شيئا وراءه ، وهو نفسه لاشيء ؛
إنه ليس إلا اللحظة الأخيرة
من الوقت القصير الذى نقضيه .
لاتخش ذلك المستقبل الذى سيتبعه
ولا تأمل فيه .
ولا يخدعنك ذلك الخوف من الهلاك
ولا أمل البعث فى ذلك المستقبل البهيم .
فان مابعد الموت شبيه بما قبل الحياة .
إن الزمن يفترسنا
والطبيعة تدعونا باستمرار إلى الهوة .
إنها تغذى على حسابنا تطوراتها الأبدية .
هى التى وهبتنا كل شيء ،
ولذا تسترد منا كل الوجود .
ان بؤس الموت يعدل فرحة تنسم الحياة .
والانسان كما ولد بأكمله ، بأكمله يموت .

من مؤلفات جان ديهينو ، ذكرها فردريك لاشير ، ١٩٢٢ ص ٢٧ ، *Imitation du chœur de l'acte second de la Troade de Sénèque, Œuvres diverses*, 1670; cité par Frédéric Lachèvre, *les Œuvres de Jean Dehénault*, 1922, p. 27.

وهكذا كانت مدام ديهوليير Mme. Deshoulières ؛ وهكذا أيضاً كانت نينون دى لانكلو ،(١) التى كانت مقتنعة بأنها لا روح لها ، ولم تفارقها هذه العقيدة حتى فى شيخوختها ، بل فى احتضارها ..

ولكن أنضر زهرة فى تلك الطاقة كان مولانا شارل دى سان دينس(٢) messire charles de Saint-Denis مارشال جيوش « الملك المسيحى جدا » . منذ عام ١٦٦١ — حين لجأ (سانت افريموند) إلى انجلترا ، هاربا بعد فقده الحظوة لدى ملك فرنسا والوزراء — حتى وفاته فى عام ١٧٠٣ ، لم يعرف مهمة أخرى غير أن يكون متحرراً : وبذا وجد وقتا فسيحاً لكى يصبح نموذجا فذاً للمتحررين ، وهكذا بدا للفرنسيين الذين كانوا يأسفون عليه ، وللانجليز الذين كانوا يحبونه ، وللهولنديين الذين أقام بينهم زمنا طويلا . كان يوجد فى شخصه وفى بعض سيول ذهنه شئ من التأخر والرجعية : مثل الرجل الذى اضطر إلى تغيير عاداته وحياته وهو فى عنفوان شبابه فتراه يحاول ألا يقع أسيراً لماضيه . هكذا بقى «رجلا فاضلا » حتى فى وقت عز الفضلاء فيه ، ويبدأ ذلك المثال الجميل للانسان بعدما فقد قوته يحتل مكانا بين الذكريات . وهو كرجل فاضل لم يفتخر بشئ ، وإذا ما تناول اليراع كثيرا ليكتب ، فليس ذلك — كما يقول — على منوال أستاذ يكتب للتعليم ، فى ألفاظ قاطعة من الحكم والأمثال ، بل كرجل مجتمع يحاول أن يمضى وقت الفراغ . لم تكن كل هذه الرياضيات والطبيعة التى انشغل بها الناس من حوله، تثير اهتمامه . فعنده أنه لا علم يهم ذوى الفضل والشرف سوى علم الأخلاق، والسياسة والأدب : وهو استعداد رجعى فى زمن يوشك العلم فيه أن يؤيد عمل الفلسفة ويكمله ، زمن من يبق فيه بمبعدة عن العلم ، يتعرض للبقاء على هامش الحياة . كان سانت إفريموند مشغوفا بالدراسة الدقيقة لمؤلفات القدماء ، وبالمقارنات المتزنة التى يجريها ناقد نبيل بين المؤرخين ، وبين الخطباء ، وبالتحليل والموازنة ، وتصوير الشخصيات ، وغير ذلك مما يجد فيه عقل رقيق

---

(١) نينون دى لانكلو Ninon de Lenclos : غادة مشهورة بذكائها وجمالها ولدت فى باريس وكان صالونها كعبة للأدباء والنبلاء ، (١٦٢٠ - ١٧٠٥) . [المترجمان]

(٢) لقب آخر لسانت أفريموند . [المترجمان]

بطبيعته تجربة لقدرته السيكولوجية ؛ وكان يباشر المحادثة وليس هذا فى حاجة إلى تبيان . وقد نال كل مبتغاه حينما جاءت هورتانس مانسينى دوقة مازارين لتقيم فى لندن ، وافتتحت صالونا : صالونا سيغشاه كل يوم ، وذلك هو ما كان ينقصه حتى الآن فى الحياة .

وكان أبيقورياً ، يرى أن ليس بين آراء الفلاسفة عن الخير الأسمى ، رأى يبدو أصح من رأى أبيقور . كان يريد أن يعيش مجاريا الطبيعة ، وهو وإن لم يدرك تمام الادراك — فى الحق — ما هى هذه الطبيعة ، إلا أنه عرف كيف يعيش عيشة رقيقة ناعمة . كانت السلطة تحميه حتى لما تغير صاحبها بانتقال الحكم من يد جاك الثانى إلى يد وليم الثالث ، وكان يشغل فراغ أيامه بعادات لطيفة منظمة ، وكان نهماً أكولا ، يعين متعه بدقة حتى يكون أكثر تلذذاً بتذوقها ، فكان بذلك كله مثالا ظريفاً لحب الذات . كان يبغض فكرة الامتناع والحرمان ، والزهد وتعذيب النفس . أما الاعتدال والاتزان ، وعدم الاكتراث الذى يتيح للمرء تجنب الشهوات ، وحب الذات فى رقة ، فيراها فضائل أساسية ، ومثل ذلك التوفر على حفظ الصحة ، فانه خير قيم ، جعلنا اعتياده نبخسه حقه من التقدير .

وقد أصيب بعاهة نغصته ، لما بلغ السبعين من عمره . يقول لنا دى سيزو ناشره ومؤرخه الأول « كان لسانت افريموند عينان زرقاوان حيتان براقتان ، وجبين عريض ، وحاجبان كثان وفم جميل وابتسامة ساكرة ، وطلعة طريفة ناطقة بالذكاء ، وقوام ممشوق ، وخطو نبيل وثيق ، وقبل وفاته بعشرين عاما ظهر بين عينيه كيس دهنى ، كبر كثيراً فيما بعد . . . » ولكنه قابل ذلك بتصرف حكيم : فليس بذى أهمية أن يصاب المرء بدمل بين عينيه ، مادام باقياً على قيد الحياة . « إن ثمانية أيام من الحياة لأثمن من ثمانية أيام من المجد بعد الوفاة . »

كان يعتز بتلك الحياة التى أفلح فى إطالتها بمهارته ، والتى رقت له بعد عوائق شبابه . لم يصب إلى متعة أخرى ، ولقد كان دون ريب يؤثر على كل ما كتب تخليداً لذكره ، الكلمات الآتية :

Aimé de plus d'un roi, chèr a plus d'une dame,
Il connut peu l'orgueil, peu l'amoureuse flamme; (١)

---

(١) أحبه أكثر من ملك ، وأعزته أكثر من حسناء
عرف الكبر قليلا ، ولفحته شعلة الغرام ؛

Ecrire et bien manger, fut son double talent,
Il nourrit pour la vie un amour violent,
Connut à peine Dieu, mais point du tout son âme ... (١)

والحق ، أنه شعر بحب شديد للحياة ، ولكل ما يجعلنا نقدر الحياة : حرية التصرف من تلقاء الذات ، وفوق كل حرية ، حرية عقل لا يقبل إلا قانونه الخاص .

هل ينبغي أن نتصور له نفساً أكثر تعقيداً ؟ هل ينبغي أن نعتقد أنه سبك قصته الشخصية ، وأراد أن يخلف للناس صورته ، مرسومة حسب بدعة المتحررين ، بينما سانت أفريموند الحقيقي ، يحن إلى وطنه ، ولا يشك إلا قليلا ، ويأمل دائماً ؟ ذلك ليس مؤكداً ، ولو أنه طالما أيده الكثيرون . فانه ، عندما تقلقه حالة الانسان التعسة ، ويطلب صعوداً إلى درجات الملائكة ، أو سقوطا إلى درك الحيوان ، لا يبتهل إلى « الاله » الذي مات على الصليب ، والذي يهينه مثل هذا الطلب ، وإنما يبتهل إلى الطبيعة :

Un mélange incertain d'esprit et de matière,
Nous fait vivre avec trop ou trop peu de lumière,
Pour savoir justement et nos biens et nos maux.
Change l'état douteux dans lequel tu nous ranges,
Nature, élève-nous à la clarté des anges,
Ou nous abaisse au sens des simples animaux. (٢)

وعلى كل حال ، فحتى لو كانت تلك الصورة المتفقة قد اختلفت عن أصل

---

(١) موهبته المزدوجة ، الكتابة وجودة الطعام .
أحس حيال الحياة حباً جارفاً شديداً ،
يكاد يؤمن بالله ، ولم يؤمن قط بالروح .

(٢) إن مزيجا مبهما من المادة والروح ،
يجعلنا نعيش بكثير — أو بقليل — من النور ،
لندرك ما يصيبنا من خيرات وشرور .
بدلي أيتها الطبيعة حالة الشك التي تدفعيننا إليها ،
وارفعينا إلى ضياء الملائكة ،
أو أستطينا إلى مشاعر الحيوان .

يذكره ا. م. شمت ، سانت افريموند ١٩٣٢ ص ١٤١ ,Cité par A. H. Schmidt
Saint Evremond ou l'humaniste impur, 1932, p. 141

حافل بالتردد والتناقض ، فسيبقى ذلك الأصل سراً مطوياً ، ولا يشتهر إلا الرجل المتحرر : « لو أننا درسنا حياته ومؤلفاته ، بحثا عن رجل جاد رزين ، وعن حياة فيلسوف ، فلن يطول بنا الأمر حتى نكتشف أننا قد وقعنا فى خطأ كبير ، وأن امرأ يسلك مسلكه ، لن يكون يوما فيلسوفا جاداً ، يعيش بمبعدة عن المتع الحسية . . . وفيما يتعلق بمؤلفاته ، سيخيب رجاؤنا إذا نحن بحثنا فيها عن علم ضليع بالفلسفة ، أو بالتاريخ القديم ، أو عن صرامة رواقية(١) أو تنسك ، إذ نقرأ كتبه من أولها إلى آخرها دون أن نجد شيئاً مما كنا ننشده » . أبيقورى خفيف : هكذا يصفه جان لى كلير فى مجلته « المكتبة المنتخبة » ، فى تعليقه على نشر مؤلفاته فى أمستردام(٢).

أى جديد يأتى به سانت أفريموند فى طائفته ، ذلك الرجل المتحرر ، بشير العصر الجديد ؟ أولا ، لمحة تدل على جامعيته Cosmopolitisme ، لا لاهتمامه بأدب البلد الذى يقيم فيه ، ولا لترجمته «فولبون» Volpone ، ولا لتأليفه ملهاة *Sir Politick would be* على الطريقة الانجليزية فحسب ، بل لأنه — فوق ذلك — أدرك فكرة النسبية ، كما أدرك فكرة التطور فى التاريخ . لقد فهم أن كل شعب ، بما له من أخلاق وسلوك وموهبة تخصه وحده ، إنما يمثل قيمة لا يستطيع شعب آخر أن يخضعها لقانونه الخاص . ولقد رفض أن يعد الأجنبى بربريا ، وطبق فى العلائق الدولية ذلك التسامح الذى نادى به تجاه الأفكار . فكما أن لكل نظرية حقيقتها ، فلكل شعب مزاياه : «الحق أننى لم أر أوسع أفقاً و إدراكاً من الفرنسيين الذين يعيرون الأمور اهتماما كثيراً ، والانجليز الذين يستطيعون أن ينتزعوا أنفسهم من لجة التأمل والتفكير ، للعودة إلى سهولة الحديث ، و إلى بعض حرية الفكر ، التى ينبغى ألا تنقص المرء أبداً ، ما أمكن . وأفضل من فى الدنيا ، هم الفرنسيون الذين يفكرون ، والانجليز الذين يتحدثون . » وهو يتطلع إلى المستقبل ، مدفوعاً بتلك الارادة فى الفهم . ويحس شعورا

---

(١) الرواقيون : Stoïciens ، أو مذهب زينون . مذهب حلولى أى لا يفرق بين الاله والكون Panthéiste ، ولكنه اشتهر على الأخص بأخلاقه ، التى تضع الخير الأسمى فى الجهد والخضوع للعقل ، دون نظر إلى الظروف الخارجية : المال والصحة والألم . . . وجوهر هذا المذهب فى الواقع هو احتمال الألم وعدم الاكتراث له . [المترجمان]

(٢) سنة ١٧٠٦ ، الجزء التاسع .

من الراحة والهدوء فى حالته الدينية . فهو لم يخالجه يوما شعور بأنه عاص متمرد ، بل يستغرق فى عدم التصديق براحة البال التى يجدها الآخرون فى الايمان ، مقابل بعض التضحيات ، نزولا على حكم المظاهر والعادات . وإذا كان بعض المتحررين قد عانوا الاضطهاد من أجل أفكارهم ، فهو على النقيض يفوز بالجزاء والمجد ؛ إن سانت أفريموند لا يمثل التحرر المناضل ، بل التحرر الظافر . ألم يدفن ممجداً مكرماً فى ويستمنستر فى ركن الشعراء ؟ — وهو يدلنا، على الأخص ، على الاتجاه العام إلى مذاهب أقوى ، مذاهب أكثر تهجماً ، وأكثر اقتداراً على تقديم مواد جوهرية تغذى العقول الشرهة المتحرقة إلى التجديد . لقد عرف إبان إقامته فى هولندا من عام ١٦٦٦ ، إلى عام ١٦٧٢ يهوديا يدعى سبينوزا ، ولقد سرته — كما يقول دى سيزو — رؤية «بعض مشاهير العلماء والفلاسفة الذين كانوا وقتئذ فى لاهاى ، وعلى الأخص هينسيوس وفوسيوس وسبينوزا . » ولسنا نعرف ماذا دار بينهم على التحقيق ، ولكن الذى نعرفه أنه بعد مقابلتهم بزمن طويل ، أصبحت ذكرى سبينوزا تحتل مخيلة سانت أفريموند ولاتريم . « لقد خيل إلى المتحررين الفرنسيين ، الذين لا يمثلون بعد ، إلا رغبة متأرجحة فى التخلص من القيود ، وتبرما بالطاعة والنظام ، وتمرداً على المذاهب والنحل ، أو قل ثورة معنوية فى الاجمال — خيل إليهم أنهم سيجدون فى ذلك الرجل المتواضع الذى يعيش متأملا منعزلا فى راينبرج وستيل فركيد ، عالماً يضع نظرية عن مروقهم ، وميتافيزيقيا يؤيد بالمنطق ، ويترجم إلى مذهب ، الهدف العميق لذلك المروق . . . (١) »

---

(١) جوستاف كوهين : إقامة سانت أفريموند فى هولاندا ودخول سبينوزا ميدان التفكير الفرنسى ، ١٩٢٦ Gustave Cohen, *Le Séjour de Saint-Evremond en Hollande et l'entrée de Spinoza dans le champ de la pensée française*, 1926 - رحل ديهينو إلى هولاندا ليقابل سبينوزا « كان ديهينو Dehénault رجلا واسع العقل ضليع العلم ، مشغوفا بالمتعة فى غير ابتذال ، ماجنا فى فن وتأنق . لكن فيه أكبر عيب يمكن أن يصيب الانسان : كان يزهو بكفره ، ويعلنه بفخر وإعجاب بغيض — ألف ثلاث نظريات عن فناء الروح . ورحل إلى هولاندا لكى يقابل سبينوزا ، الذى لم يقدر سعة علمه واطلاعه كثيراً ، بالرغم من ذلك » . Dubos à Bayle, dans le *Choix de la Correspondance de P. Bayle*, par E. Gigas, 1890 (ديبو إلى بايل ، ٢٧ ابريل ١٦٩٦ ، فى رسائل بايل المختارة ، تأليف جيجاس ، ١٨٩٠) .

وهكذا ، فان المتحررين يعملون أولا على اكتساب الشهرة ، بالرغم من ضعف مذهبهم ، وهم لم يقبلوا أبداً الهدنة الفلسفية التى عرضتها الكلاسيكية الفرنسية ، ورفضوا قبول أى مذهب بحسبانه مذهباً مكتملا ؛ لقد شكوا دائماً ، ودأبوا على الانكار . إن عصيانهم بمثابة إعداد للتمردات المستقبلة . إنهم ذخيرة من عدم الايمان . وهذا صحيح حتى إنه فى المجادلات الصحفية لذلك الزمن ، لم يفرقوا بين أولئك الذين ينتقدون نصوص الانجيل ، والذين لم يعتقدوا بالوحى وبالمعجزات ، وغير المكترثين ، والكفار ، بل يسمونهم جميعاً « متحررين » ؛ و إنما يرجع ذلك إلى عدم الاعتناء بالتمييز بين الآراء ، والمذاهب ، والنظريات، وبفحص الفوارق ، وتعيين الحدود ، و إلى مبادرتهم إلى وسم العقول التى تعد خطرة على الايمان ، دون أناة .

ولكنه صحيح أيضاً أن المتحررين لم يعودوا يكتفون بأنفسهم ، وأنهم اضطروا فى نهاية القرن السابع عشر إلى البحث عن دعامة فى فكرة فلسفية أقوى وأكثر انسجاماً . إذا كان التحرر يعنى من جهة عدم التصديق ، ومن جهة أخرى حب الحياة الشهوانية — دالاً بذلك على حرية مزدوجة : حرية العقل وحرية الحواس — فان الزمن قد أخذ فى تغيير هاتين الصفتين . فعديمو التصديق يبحثون عن مذاهب جديدة تحل محل مبادئهم الغاساندية المستضعفة المتأخرة ، حتى إننا سنجد فى فولتير شخصاً آخر وأكثر من متحرر . أما الشهوانيون فسيطلبون متعا أقل رقة ، وأقل اعتدالا ؛ وسيظهرون أفسق وأوقح . وفى عهد الوصاية(١) ، سنرى تحرراً فيه شئ آخر غير البحث عن التوازن ، بل سنجد تظاهراً بالمغالاة ، فان ندماء الوصى على العرش Les Roués ، سيشتهرون بالابتذال فى الأخلاق أكثر من اشتهارهم بالاستقلال فى التفكير . وسوف يتم هذا الانتقال على أيدى لافار والشاعر شوليو La Fare et Chaulieu ولاسيما الأخير ، الذى يعتقد أن النبيذ والنساء يعدان فى مقدمة المتع

---

(١) عهد الوصاية : La Régence أى حكم فيليب دورليان فى قصور لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٢٣) وهذه الحقبة مشهورة فى تاريخ فرنسا وتتميز بحرية مفرطة فى الأفكار ، وفى الأخلاق على الخصوص . وقد انفجرت عقب وفاة لويس الرابع عشر ونهاية حكمه الظالم الشديد . [المترجمان]

التى تحبونا بها الطبيعة الحكيمة ، والذى رد ذات يوم على أشعار صديقه مالیزیو Malézieux بهذا الاقرار :

Pour répondre à tes chansons,
Il faudrait de la Nature
De Lucrèce ou d'Epicure.
Emprunter quelques raisons ;
Mais sur l'essence divine
Je hais leur témérité
Et je n'aime leur doctrine
Que touchant la Volupté,
Je suis cet attrait vainqueur,
Ce doux penchant de mon âme
Que grava d'un trait de flamme
Nature au fond de mon cœur ;
Dans une sainte mollesse
J'écoute tous mes désirs ;
Et je crois que la sagesse
Est le chemin des plaisirs . . . (١)

لقد أخذ معنى الكلمة يتغير ؛ ينبغى أن نخصص وأن نقول « المتحررين عقلا (٢) » libertins d'esprit ، إذا أردنا أن نبين أننا لا نقصد التحرر فى

---

(١) لكى أرد على أشعارك ،
ينبغى أن ألتمس بعض البراهين
لدى « طبيعة » لوكريس وأبيقور .
ولكنى أبغض جرأتهما فيما يخص الجوهر الالهى ،
ولا يعجبنى مذهبهما إلا فيما يخص الشهوة
إنى أتبع تلك الجاذبية الظافرة
ذلك الميل اللطيف لروحى ،
الذى نقشته الطبيعة فى أعماق قلبى ،
بألفاظ من نار .
إنى أصغى إلى شهوانى ،
فى استرخاء قدسى ،
وأعتقد أن الحكمة هى طريق المتعة .

(٢) بيير بايل : القاموس ، باب أرسيزيلاس Arcesilas « نحن لا نراعى المبدأ الحقيقى لأخلاقنا فى أحكامنا النظرية على طبيعة الأشياء ، حتى إننا لا نجد أناسا سيئى السيرة أكثر من المسيحيين الأرثوذكس ، ولا حسنى السلوك أكثر من المتحررين عقلا» .

الحواس . بينما الذين «يقعون فى الديزم (الايمان بالله و إنكار الوحى) ، أو فى هذا النوع من الشك . . . يدعون العقول القوية (١) » .

***

Nulla nunc celebrior, clamorosiorqu esecta quam Cartesianorum

« ليس أشهر الآن من المذهب الديكارتى » ، ذلك ما يعلنه أحد المعاصرين فى كتاب عنوانه بليغ الدلالة *Historia Rationis* (٢) . الواقع أنه فى نهاية القرن أصبح ديكارت ملكا . بيد أن ملكيته ليست مطلقة ، لأن مثلها لا يحدث فى ميادين الفكر ، ولأن بعض الخصائص الأهلية والجنسية تبقى ولا تتغير ، حتى فى أكثر أشكال التفكير تجرداً ونظرية . فان ديكارت لا ينجح فى غزو الفكر الانجليزى ولا الفكر الايطالى ، اللذين يذودان عن انجلترا و إيطاليا ويبقيان على خصائصهما الجنسية . لكن إذا نزل المفكرون إلى ميدان «الشامل» فان ديكارت يتوج ويسود . فما من فرنسى يفكر ، إلا ويتأثر بنفوذ ديكارت إلى حد ما ، ولو كان من أخصامه ، وما من أجنبى ذى شأن وخطر لم يكتسب منه على الأقل تشجيعاً على التفكير والتفلسف . إن لوك يعترف بأنه مدين له ، وسبينوزا فى بدايته يشرح نظرية ديكارت ، ولعل أحداً لم ينفذ مثله إلى أعماق تفكير الأستاذ . ولما حاول فيكو بعد ذلك بقليل أن يجود على إيطاليا بفلسفة من بنات أفكاره ، فان العدو الذى يضطر إلى محاربته لم يكن أرسطو المخلوع عن العرش ، بل ديكارت المتربع على العرش . لقد صار مذهب ديكارت يدرس رسميا فى مدارس هولاندا ، ومنها ينتقل إلى المجر ، بفضل الطلبة العائدين من جامعات ليدن ولاهاى وأمستردام وأترخت وفرانيكير ؛ واتخذت ألمانيا مذهبه وسيلة للتحرر من المدرسية ، وهنا أيضاً ، إذا أردنا أن نقدر قوة فعل بما يصحبه من رد فعل ، فلنتذكر أن ليبنتز العظيم قد عنى بتفنيد ديكارت . إن أتباع ديكارت ، الذين سبق أن حوكموا ، وأدرجوا فى القائمة السوداء ، وعانوا النير والاضطهاد ، وأدينوا ، قد أصبحوا بعد مرور نصف قرن يشغلون

(١) بيير بايل : أفكار عن المذنب ، الفصل ١٣٩ ، *Pensées sur la Comète* § CXXXIX.

(٢) تاريخ العقل : ب. كوليه ، ١٦٨٥ ، الباب الثالث عشر ص ١٠٧ .
Historia Rationis, auctore D. P. D. J. U. D. (P. Collet) 1685, art. XIII, p. 107.

المناصب الجامعية ، ويلقون المحاضرات ، ويؤلفون الكتب ؛ أصبحوا موضع التشريف والتكريم : دانت لهم السلطة .

حينما يبلغ مذهب هذا المدى الواسع من الانتشار ، حتى يعرفه من لم يمارسوه أبداً ، وحتى يؤثر على من لم تكن لهم أى صلة بالكتب التى تشرحه ، فمن الطبيعى أن يفقد على طول الطريق كثيراً من ثرواته ، وألا يبقى منه ما يؤثر ، إلا ذلك الشطر من جوهره الذى يمتزج إلى الأبد بالتراث الانسانى . هكذا فقدت فى الطريق ، الغدة الصنوبرية La glande pinéale وهى معقل الروح ، « والحيوانات — آلات » ، التى لا تشعر باللذة أو بالألم ؛ والملاء ، والعواصف ، وفيزيقا ديكارت ، بل ميتافيزيقاه أيضاً . . . فاذا تبقى إذن ؟ تبقت روحه ، وطريقته وهى كسب بلا شك ، وقواعده الساطعة التى تضئ أمام العقل الطريق ، والتى بلغ من بساطتها وقوتها أنها وإن كانت لا تنير لنا كل اليقين ، فهى تتيح لنا على الأقل أن نبدد جانباً من الظلمات .

الثقة بالعقل الذى أصبح يعد أداة للمعرفة الأكيدة ، « تلك الحركة التى تجرى من الداخل إلى الخارج ، من الذاتى إلى الموضوعى ، du subjectif à l'objectif (١) من السيكولوجى إلى الأنطولوجى (٢) ، ومن توكيد الضمير إلى الجوهر (٣) » : هذه هى القيم الموقوفة التى يخلفها ديكارت للجيل الثانى والثالث من أتباعه . فلنصدق فونتنل فى قوله « يخيل إلى أنه مصدر هذا المنهج الجديد فى الاستدلال ، والذى يفوق فلسفته نفسها ، تلك الفلسفة التى لو طبقنا عليها القواعد التى تعلمناها منه ، لوجدنا شطراً كبيراً منها خطأ ، أو غير وثيق . »

ولم يعد فى إمكان ذلك العقل الثائر المنطلق أن يقف ، وهو لا يعترف بأى تقليد أو أية سلطة ؛ إنه يعلن أن « ليس هناك ما يمنع من أن نطرح كل شئ لكى نفحص كل شئ » إنه يريد أن يمحو الحقيقة المجردة . إن الكلمة السحرية

---

(١) Subjectif « ذاتى » أو ما يخص الفاعل المفكر . . . Objectif « موضوعى » أو ما يخص الموضوع .

(٢) « السيكولوجى » ما يخص النفس . « الأنطولوجى » ما يخص الوجود والكائنات . [المترجمان]

(٣) (تاريخ الأفكار « الاستطيقية » ، مقدمة .

Menendez y Pelayo, *Historia de las ideas esteticas*, siglo XVIII, Introduccion.

القادرة على قمع القوات التى توشك أن تكون خطراً ، والتى تكمن خطورتها فى نفس تزايد قوتها ، تلك الكلمة الحكيمة التى فاه بها الأستاذ فى سرعة وفى حذر ، لم يعد يتذكرها تلامذته السحرة ، وإذا هم تذكروها فانهم يرغبون عن استعمالها . إن لهم الأرض والسماء ! لهم كل ما يقع فى دائرة المعرفة ! لهم الأدب والفن ! لا شئ — فى عرفهم — يفر من قبضة الذهن الهندسى . ولهم علم اللاهوت ! إن أستاذاً فى الرياضيات ، هو يعقوب شاوتشزر Jacob Scheuchzer فى سياق مدحه للذهن الهندسى فى الموضوعات اللاهوتية(١) ، يذكر فى زهو وتقدير ، « المقدسة » التى أدرجها فونتنل فى مؤلفه (تاريخ الجامعة الملكية للعلوم منذ قانون ١٦٩٩) *Histoire de l'Académie des sciences depuis le règlement fait en* 1699. « إن الذهن الهندسى ليس وثيق الارتباط بالهندسة حتى يتعذر فصله عنها ووصله بمعارف أخرى . فان مؤلفاً سياسياً ، أو أخلاقياً ، أو نقدياً ، أو حتى مؤلفاً فى البلاغة ، قد يزداد جمالا لو أنه كتب بيد هندسية ، مع بقاء كل شئ على أصله . لعل المنبع الأول لما يسود الكتب القيمة من زمن ، من نظام ودقة ووضوح ، هو ذلك الذهن الهندسى الذى بلغ من الانتشار مداه ، والذى يسرى رويداً رويداً حتى إلى من لا يعرفون الهندسة . يحدث أحياناً أن رجلا عظيما يؤثر فى عصره بأسره ، والرجل الذى يستحق عن جدارة أن ننسب إليه شرف وضع فن جديد للاستدلال ، كان عالماً عظيما فى الهندسة . » لقد انتهى الأمر ، ومر الزمن ؛ لقد أثر ديكارت الهندسى فى العصور الحديثة . — لكن إذا نحن افترضنا أن هذا الذهن الهندسى تعرض للعقيدة ، وطبق دون تحوط على مسائل الايمان ، فترى ماذا يحدث ؟ يحدث « محو الأديان » : فانه يعمل على إزالتها كلها (٢) .

أهناك مثال أعجب من أن مذهباً يؤدى منطقياً إلى نتائج متعارضة ؟ لقد أقيم التدليل على ذلك الواقع فى حذق وبراعة حتى إننا لا نملك إلا أن

---

(١) استعمال الفكر الهندسى فى علم اللاهوت ، ألفه يعقوب شوتشزر . ١٧١١ .
Praelectio de matheseos usu in theologia, habita a Jh. Jacobo Sheuchzero, med. D. math. P., Tiguri, 1711.

(٢) أخبار جمهورية الأدب ، نوفمبر ١٦٨٤ ، الباب الأول .

نذكره باعجاب(١) وتقدير . إن الفلسفة الديكارتية تمد الدين ، أولا ، بدعامة قيمة مكينة ؛ ولكن هذه الفلسفة تحمل فى ثناياها مبدأ لا دينياً ، يتضح على مر الزمن ، ويعمل ويؤثر ، حتى يستعمله الناس فى تقويض دعائم العقيدة . كان المذهب الديكارتى يهيئ يقينا ، وأماناً ، ويقدم حيال الارتيابية توكيداً قاطعاً ، إذ يثبت وجود الله ، ولا مادية الروح ، ويميز بين الفكر والامتداد ، وبين الفكرة النبيلة والحساسية ، ويسجل انتصار الحرية على الغريزة : والخلاصة أنه كان سياجا ضد التحرر . ثم إذا به يثبت التحرر ويقويه . ذلك لأنه كان ينادى بالفحص والنقد ، ويحتم البداهة حتى فى المسائل التى أبعدتها السلطة عن متناول قوانين البداهة . كان يهاجم العقل المؤقت الذى شيده ليحتمى فيه الايمان . لابد أن يرى المرء النقطة المعينة التى ينتهى إليها المذهب الديكارتى ، طوعا أو كرها ، وبشرط ألا يحاول المرء أن يخدع نفسه ؛ حيث يناقش الأديان ، وماهية الديانة بالذات . بل لقد طرد المذهب الديكارتى أرسطو : « لعل المشائين أتباع أرسطو Péripatéticiens ، قد اشتد بهم الخجل والارتباك ، لرؤية كلمة الله الأبدية Le Verbe Eternel وقد أصبحت ديكارتية ... (٢) » ولو أنك انتظرت بعض الوقت ، لرأيت إلى أين ستصل نتائج التفكير الديكارتى : « كم ستتملككم الدهشة لو رجع ديكارت الآن إلى الدنيا . أظنكم سترون فيه أعدى أعداء المسيحية . (٣) »

***

ذلك الانفصال بين العقل والدين ، الذى يسير ويؤيد نفسه بنفسه ، سينبرى رجل ليعارضه ، بكل ما أوتى عقله من قوة : هذا الرجل هو الأب مالبرانش Malebranche الذى لم يكف طوال حياته عن الاعتقاد بأن « الدين ، هو الفلسفة الحقيقية » .

---

(١) جوستاف لانسون : تأثير الفلسفة الديكارتية على الأدب الفرنسى ، دراسات التاريخ الأدبى . ١٩٣٠ . G. Lanson, *L'influence de la philosophie cartésienne sur la littérature française, Études d'histoire littéraire*, 1930

(٢) جوريو : فكر المسيو أرنو ١٦٨٤ ، ص ٧٨ . Jurieu, *L'esprit de M. Arnauld*

(٣) ل . ا . كاراجيولى : محادثة بين عصر لويس الرابع عشر ، وعصر لويس الخامس عشر ، لاهاى ١٧٥١ ص ٣٩ . L. A. Caraccioli, *Dialogue entre le siècle de Louis XIV et le siècle de Louis XV*, La Haye, 1751, p. 39.

ليس ذلك الرجل بعيداً عن أن يكون فيلسوفا صرفا ، كما يظن العوام : إنه لا يجد راحته التامة إلا فى ميادين « اللامتناهى » ، وهو يتغذى بالأفكار، وما أقل احتياجه إلى المادة ! ولقد كان بمقدوره أن يخترع الميتافيزيقا ، لو لم تكن موجودة من قبله . إنه شخصية ظريفة ، نسيج وحده ، بسيط فى مظهره ، معقد فى مخبره ، كان ضعيفاً مسقاما ، تقوده فطرته — كما يقول فونتنل الذى يرى فيه موضوعاً عجيباً شائقاً — نحو سبيل الحكمة والحرمان التى تحتمها إرادته : حتى إن الطبع والارادة ، الجسد والعقل يتفقان لأول مرة ، وفى ذلك الرجل . لقد التجأ إلى جمعية الأوراتوار(١) ، خوفاً من الدنيا ، وفزعاً إزاء الحياة ، وفراراً من جلبة الوظائف والرتب ، والحق أنه عاش متواضعاً أقصى التواضع خاشعاً كل الخشوع . ولما كان غنياً فقد تخلص من ماله ، بجوده وعطائه. كانت فيه على الأقل بعض الفضائل التى تجعل من القديس قديساً . ولكنه مع صفاء قلبه وسذاجته ، كان أيضاً وقاد القريحة ، صلب الرأى ، قوى الارادة ، لا شئ فى الدنيا يحمله على التخلى عن أفكاره ، وحينما تولد أفكاره المشاكل ، كانت له طريقة تنرد بها ، وهى أن يلقى بنفسه فى مشاكل أخرى ، حتى تستغلق هى ، وينتصر هو .

وذات يوم صادف الفكر الديكارتى ، فكان معين إلهامه(٢) .لغاية ذلك الوقت ، لم يكن يعرف فيم يستغل عقله ، كان يتلمس السبيل ؛ أما بعد ذلك فلم يتردد : قرر أنه سيغدو ديكارتياً ومسيحياً ، معا . سيصلح ما بين الديكارتية والمسيحية من خلاف . منذ ذلك اليوم ، تقرر اتجاه حياته .

كان يطيل التفكير ويتعمق فيه ، حتى إذا بدا له أن تفكيره قد نضج ، خرج على الناس بأبحاث ميتافيزيقية ضخمة ، تخلق رنة وضجة . لقد سعى إليه المجد بنفسه ، مجد بلغ من الحيوية مبلغاً لا نستطيع أن نتصوره اليوم ، ولكنه

---

(١) Congrégation de l'Oratoire : جمعية دينية ، تأسست فى روما فيما سبق ، ثم انتقلت إلى فرنسا سنة ١٦١١ .

(٢) ذات يوم وجد مالبرانش فى مكتبته « المقال فى المنهج » كتاب ديكارت . وفى هذه اللحظة شعر بالهام عميق ، وقرر الفرار إلى الريف حيث عاش عشرسنين فى عزلة تامة وتفكير عميق . وبعدها عاد إلى الأوراتوار وكتب مؤلفه الشهير « البحث عن الحقيقة » الذى أكسبه مجداً منقطع النظير . (أنظر حياة مالبرانش بقلم أوليه لابرون) . [المترجمان]

Ollé-Laprune, *Malebranche* (Ladrange) 1870, 2 vol.

تعدى فى إشعاعه حدود فرنسا ، وكتب له من البقاء أطول مما كتب لصاحبه. وكان له قراء وأتباع ومتعصبون: فان طالباً فى مدرسة أكليريكية فى نابولى ، يدعى برناردولاما ، هرب من وطنه ووصل إلى باريس ، قاصداً رؤية مالبرانش الشهير . وكان مالبرانش يعيش فى هدوء ، بمبعدة عن كل ذهن ثورى متمرد، ومع ذلك فقد أثار مناقشات طويلة ، وتفنيدات حماسية ، جعل يرد عليها باقتناع عميق ، حتى إن حياته كانت عراكاً فلسفياً مستمراً . ومن صومعته الصارمة ، حيث التجأ ليفكر بمنأى عن المجتمع ، مستخفاً بالطبيعة ، انبعثت فى ضياء ساطع « تلك المحاولة الأخيرة للفلسفة المسيحية الحرة . » وهذه المحاولة ، التى عاونتها مزية تفكير مولع بالمسائل العويصة ، هى التى أثرت على النفوس وفازت بأسمى تقدير فى تاريخ الأفكار .

البداهة العقلية : ذلك هو النور الوضاء الذى كان يصبو إليه مالبرانش فى غيرة صوفية . لأن التصوف عنده يتفق وتوقير العقل . فهو يعمل فى ورع على أن تظهر الحياة فردية كانت أو شاملة ، وعلى أن يظهر الكون بأجمعه ، كتحقيق لنظام يفسر الايمان ويتضمنه .

بينما ، لو نظرنا إلى الدنيا ، لوجدنا فيها ، بجانب نظام شامل لا ينكر ، اختلالا يربك ويحير . فالظواهر ، والشواذ ، تعلن وجود الشر الطبيعى ؛ والخطيئة تعلن وجود الشر الأخلاقى . ومهمة الفيلسوف أن يشرح لنا هذا الاضطراب .

لكيلا يقع بأى حال ما يخالف النظام ، ولكيلا تسقط فى حبائل الاغراء روح توشك على ارتكاب الخطيئة ، وحتى إذا سقطت فلكى تنال الغفران بعد توبتها ، ينبغى أن نفترض إلها يتدخل فى كل لحظة ، ويزعج نفسه فى كل آونة ليأتى بالمعجزات ، ويخالف بنفسه القوانين التى استنها على ألا تنقض : إذن سنستبدل بالاختلال عدداً لا نهائياً من الأوامر الإلهية المخالفة .

هنا يتدخل مالبرانش — الذى لا يستطيع أن يتصور أن الله القادر على كل شئ يليق بعظمته ذلك الاسراف فى الوسائل — لكى يقول لنا إن الله يعمل بموجب إرادة شاملة لا خاصة . لابد أن يراعى الله مقتضيات الحكمة ، مادام يمثل الحكمة فى أسمى صورها . إنه يحب الحكمة حباً لا يدفع ، حباً طبيعياً ولازما . ولابد أن يتبع سيرة تليق بأوصافه : سيرة منطقية لا تناقض فيها .

فالمطر يساقط فى نفس الوقت على الحقل ، ليرويه فيثمر ، وعلى الطريق ، والبحر والجدول : عندئذ يأخذنا العجب . فأى الطريقين أصوب ؟ التدخل كلما سقط المطر لتحديد مكان سقوطه ، أم ترك القانون العام للحركة يأخذ مجراه ؟ إذا كانت هذه الطريق الأخيرة أصوب وأليق ، فان الله لا يستطيع إلا أن يفضلها .

حقا ، إن الله لا يريد تعذيب هذا الكافر أو ذاك الشرير . ولكنه لا يرضيه أن يتدخل باستمرار ، ليهب الايمان لكل الكفار ، والطيبة لكل الأشرار . فان ذلك لا يتفق وفكرة إله ذى حكمة وكمال غير متناهيين ، ومن ثم يستحيل تحقيق السلام الشامل .

كل ما يستطيع الله أن يفعله ، هو أن يضع عللا باعثة Causes occasionnelles : رسلا يعملون طبقاً لأوامره ، وكلت إليهم مهمة وضعت بشكل لا رجعة فيه . إن السيد المسيح قد عينه « أبوه » ليكون العلة الباعثة الوحيدة للغفران الالهى بأسره ؛ وهو يوزع هذا الغفران على الناس ، الذين يصلى من أجلهم وهؤلاء الناس سيتقذون دون أن يتكلف « الرب » إرادة خاصة . والسيد المسيح نفسه يصلى ويدعو طبقا لمقتضيات النظام ، وحسبما تحتاج العمارة الروحانية التى يريد الله أن يشيدها ، إلى حجارة حية . فالله يطيع ذلك المبدأ من التبسيط وتوفير القوات ، الذى هو المنطق ، والحق ، والحياة .

هكذا يستدل مالبرانش . وحيثما يشتم خطر انفصال بين الفلسفة والايمان ، سواء تعلق الأمر بسر تناول القربان ، أو بفقرات من الكتاب المقدس محل خلاف ، يهرع ، ويشرح ، ويقول : « كونوا أكثر ثقة بعقولكم ، كونوا أكثر إدراكا لعظمة النظام وقيمته ، يتضح لكم كل شئ ، ويستتب الانسجام . إن رشاقته لا حد لها ، وإن سعة حيلته لاعجازية ، فهو يقيم قصراً واهياً من الأفكار ويدعمه بقصر آخر ، معتقداً أن فى معجزة التوازن هذه ، دليلا على المتانة . إلا أنه لا يدرك أنه بجعله الله يذعن لحكم نظامه المنتصر وحكمته الظافرة ، إنما يسلبه فى نفس الوقت كل حقوقه وبواعث وجوده : إما أن الله لا يعدو كونه وكيلا ، وإما أنه هو العالم الذى يقوم بنفسه طبقاً لقوانين لازمة ؛ حتى إنه ، بالرغم منه ، ومن إرادته القاطعة ، ومن براعته الفذة ، لا يصعب اتهام مالبرانش المسيحى جدا ، بأن مذهبه مخالف للمسيحية . قال له فنيلون فى « مناقضته »

التى كتبها ضده « إنكم لم تقدروا أنكم عملتم على إخضاع الدين لأحكام الفلسفة ، وعلى السماح بقيام المبادئ السوسنيانية ضد أسرارنا . » إن بيير بايل ، الذى كان معجبا به ، بل كان يعد مالبرانش وأرنو أعظم فلاسفة الدنيا ، والذى يعد كتاب « البحث فى الطبيعة والغفران (١) » مؤلفاً لعبقرى ممتاز ومثالا لأقصى مجهود للعقل البشرى » ، لا يخفى عليه إلى أين ستؤدى تلك الميتافيزيقا .

— « لو تحرينا الحقيقة لوجدنا أن مالبرانش يفترض أن رحمة الله وعظمته تحدهما حدود ضيقة ، وأن ليس لله أية حرية ، وأنه ملزم بمقتضى حكمته بخلق الكون، ثم أنه ملزم بأن يكون فعله هذا مثل ذلك الخلق تماما ، ثم أنه يخلقه حسب طرق معينة مثل تلك الطرق تماما . إنك تجد هنا ثلاثة التزامات تكون دعاية رواقية (٢) واضحة . . . » وعلى ذلك يضع بايل قياسين منطقيين مؤكداً : أن فى صغرى القياس الأول ، وكبرى القياس الثانى شرحا لمذهب الأب ، مالبرانش .

— الأول :

أن الله لا يستطيع أن يريد شيئاً يخالف المحبة التى يشعر بها نحو حكمته ضرورة ؛

وسلام العالم كله يخالف المحبة التى يشعر بها الله نحو حكمته ضرورة ؛

إذن لا يستطيع الله أن يريد سلام العالم .

— الثانى :

أن صنيعة الله التى تليق بحكمته تمام اللياقة ، تتضمن فيما تتضمن خطيئة كل الناس ، وعذاب معظمهم عذاباً أبدياً ؛

ولا بد أن الله يريد الصنيعة التى تليق بحكمته تمام اللياقة ؛

إذن لابد أن الله يريد صنيعة ، تتضمن فيما تتضمن خطيئة كل الناس ، وعذاب معظمهم عذاباً أبدياً (٣).

واعجبا ! ألا يكون مالبرانش متدينا فحسب ، بل كاثوليكيا مخلصاً ،

---

(١) *Traité de la nature et de la Grâce.*

(٢) يقصد بالرواقية هنا مذهب الحلوليين أى عدم التفرقة بين الاله والطبيعة وهو ماذهب إليه سبينوزا ، وهو جانب من مذهب الرواقيين . [المترجمان]

(٣) جواب على أسئلة قروى ، الجزء الثالث ، الفصل ١٥١ .

كاثوليكيا طوال حياته وفى كل أفعاله ، كاثوليكيا فى صميم إيمانه ، وأن يعطى فى نفس الوقت للحكمة مثل تلك المنزلة ، حتى تبتلع كل شئ ، حتى الله ... !

***

قال ديدرو Diderot (١) ، متحدثا عن نفسه وعن إخوانه الفلاسفة ، « كان لنا معاصرون فى عهد لويس الرابع عشر » . وهذا صحيح ، فقد كان له معاصرون فى عهد لويس الرابع عشر ، لا فى أخريات سنى الملك العظيم فحسب حيث نعلم جيداً أن الكتلة السياسية والاجتماعية جعلت تنفصل وتتفكك بل قبل ذلك بوقت طويل ، فى زمن لانرى فيه عادة إلا أورثوذكسية سوطدة وسلطانا لامعاً كالبرق . والواقع أنه فى نفس الوقت الذى كانت السلطتان الدينية والملكية تعتقدان فيه أنهما ثابتتان لا تتزعزعان ، كانتا سلغمتين إذا نحن لم ننظر إلا إلى الأدب فحسب ، ولا سيما الأدب الفرنسى منذ ١٦٧٠ إلى ١٦٧٧ ، لأحسسنا شعوراً كله غبطة وسلام وعظمة . لقد مثلت « النساء العالمات » *Les Femmes Savantes* فى عام ١٦٧٢ ، و « المريض بالوهم » *Le malade Imaginaire* فى ١٦٧٣ ، وقدم راسين « بايازيد » *Bajazet* فى ١٦٧٢ ، « وميثريدات » *Mithridate* فى ١٦٧٣ ، و « إيفيجنى » *Iphigénie* فى ١٦٧٤ و« فيدر » *Phèdre* فى ١٦٧٧ . وفى عام ١٦٧٠ ألقى بوسويه « رثاء » الأميرة هانرييت الانجليزية ، وعين مربياً لولى العهد Le Dauphin ، وألف لتعليم تلميذه « البحث فى معرفة الله والنفس » *Le Traité de la connaissance de Dieu et de soi-même* « والسياسة المقتبسة من الكتاب المقدس » *La Politique tirée de l'Ectriture Sainte* ، « والمقال فى التاريخ العالمى » *le Discours sur l'Histoire Universelle*

---

(١) Diderot : فيلسوف فرنسى ومفكر شهير ، لعب دوراً هاما فى إذاعة الأفكار الفلسفية فى القرن الثامن عشر . وهو أحد واضعى الأنسيكلوبيديا ، وكان مؤلفا وناقداً وفنانا أيضا . من أبرز الشخصيات فى عصره . ومن أهم مؤلفاته « الرسائل » الموجهة إلى أمراء عديدين ، والتى تقدم لوحة صادقة عن الحركة الفكرية فى القرن الثامن عشر (١٧١٣ - ١٧٨٤) . أنظر « الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر » بقلم بول هازار . *La Pensée Européenne au XVIIIe siècle* فى القسم الثالث الفصل التاسع Diderot . [المترجمان]

وكتب بوالو Boileau «فن الشعر» *L'Art poétique* فى عام ١٦٧٤ . وليست تلك الكتلة من المؤلفات رائعة فحسب ، بل هى أيضاً متماسكة ، قوية ومتوازنة . ولكن دعونا ننأ بأبصارنا قليلا عن الأدب ، الذى تبهرنا أشعته فتعوقنا عن رؤية القيم الفكرية العميقة ، التى سيخضع لها الأدب نفسه ذات يوم ؛ ولننظر إلى التيار القوى للتفكير الفلسفى : فنكشف عناصر تعمل جادة على انحلال هذه القوة ، قبل أن يكتمل نموها ، كشجرة لا تزال تزهر وتثمر ، بينما بدأت جذورها تذوى وتموت .

ولنذكر هذا جيداً ! لقد ظهر « البحث اللاهوتى السياسى » *Tractatus Theologico Politicus* فى عام ١٦٧٠ ، يتضمن من المستحدثات ما يكفى ليقلب المجتمع الذى استقبله رأسا على عقب . قال سبينوزا فى لسانه اللاتينى ، وبكل هدوء ، إنه يتحتم علينا أن نقضى قضاء مبرما على المعتقدات التقليدية ، لكى نبدأ التفكير على أسس جديدة ؛ وإن الأمور قد بلغت حدا لا يستطيع معه أحد أن يميز بين المسيحى وبين اليهودى أو التركى أو الوثنى ، وإنه لما كانت العقيدة لم يعد لها تأثير على الأخلاق ، فقد فسدت الروح ؛ وإن مأتى الشر أننا لم نعد نجعل الدين فعلا نفسيا اختياريا يقوم على الفحص والتفكير ، بل جعلناه « عبادة خارجية » ، اجراء آليا ، طاعة سلبية لأوامر القساوسة ؛ ولقد استولى بعض أصحاب الطمع على المناصب الكنسية واستعاضوا عن روح المحبة والاحسان بجشعهم القذر ؛ ومن هنا تولدت المنازعات والحسد والحقد . ولم يتبق من المسيحية إلا تقاليد شكلية واعتقادات باطلة ، اعتقادات تجعل من الناس حيوانات بمنعهم من حرية استعمال الحكمة وباخماد شعلة العقل البشرى . ينبغى أن نعاود البدء على أساس هذا العقل ، وأن نعمل باسمه على هدم مؤسستين مخربتين غير منطقيتين : دنيا الكنيسة ودنيا الملك .

الكتاب المقدس ؛ إن الناس يذكرون الكتاب المقدس دائماً لفرض الطاعة . ومن الكتاب المقدس يقتبسون كل عقيدة وكل خرافة . وما هو الكتاب المقدس على التحقيق ؟ لم يكن هناك أنبياء مفسرون لكلام الله ، كتاب يملى عليهم أوامره ، بل كانوا رجالا تعساء يستعيضون عن ضعف أفكارهم بقوة الخيال وغنى البيان . لم يكن هناك شعب مختار لكى يحتفظ بالناموس الالهى إلى الأبد ، بل شعب مضى واندثر كما مضى غيره واندثر . ولم يكن هناك أيضا معجزات

لأن الطبيعة تلتزم نظاما مستديماً لا يتغير ، أى مخالفة لقوانينه لا تدل على عظمة الله بل على عدم وجوده . فاذا اطرحنا كل تلك المعتقدات الباطلة التى حملها الناس الكتاب المقدس و إذا شرعنا فى تفسيرها حسب قواعد النقد التى تصلح لكل نصوص العالم ، لاتضحت لنا ماهية هذه الكتب : عمل بشرى حافل بالتردد والتناقض والخطأ . يستحيل أن تكون التوراة لموسى ؛ وليست كتب العهد القديم مثل كتاب يشوع *Josué* وكتاب القضاه *Juges* وكتاب صموئيل وكتاب راعوت *Ruth* وكتاب الملوك ، أصلية ولا صحيحة ، وينطبق ذلك على غيرها أيضاً . وهكذا يسير سبينوزا موثقا كل خطواته ، متوقفا كلما اقتضى الأمر ليتأكد من متابعة القارئ لكلامه ، حتى يصل إلى استنباطه الأول : إن الدين المسيحى لم يكن إلا ظاهرة تاريخية يفسرها الوقت الذى ظهرت فيه والظروف التى تطورت خلالها ؛ ظاهرة لم تكن لها إلا صفة زمنية لا أبدية ، نسبية لا قطعية .

ثم يهاجم سبينوزا الملوك بدورهم ويبدأ فى إثبات أمر واقع : وهو أن الملوك قد استغلوا الاعتقادات الدينية الباطلة لمصلحتهم الشخصية ؛ وأن النظام الملكى هو فن خداع الناس مادام يزين ذلك الخوف الذى يرمى أصحاب السلطان إلى بقاء الناس فيه كالعبيد ويقدمه لهم باسم الدين . إن الناس يسمون «واجب الطاعة » مالا يعدو فى الحق « مصلحة الملك » ؛ يظنون أنهم يقاتلون فى سبيل سلامهم بينما هم يؤكدون عبوديتهم ؛ ويدفعون دماءهم ثمنا لدعم عظمة رجل واحد وتشجيع كبريائه ، رجل يعاملهم كوسائل لتحقيق أطماعه ويحرسهم سبب الوجود إذ يسلبهم الحرية .

ولو أراد الناس التخلص من تلك الحالة فليس أمامهم إلا دواء واحد : هو تطبيق روح الفحص التى نستعملها فى نقض الخرافة والقضاء عليها ، على طبيعة الأنظمة السياسية وأغراضها . ولتحقيق ذلك لا بد من البدء بالتفكير الحر . حينئذ سيدركون أن الدولة لم تتأسس للاستبداد والطغيان ، وأن الحكم ليس إلا تفويضاً ارتضاه المواطنون ، وأن الديمقراطية هى أقرب أشكال الحكم إلى القانون الطبيعى ، وأن غرض الأنظمة السياسية ، فى كل حال من الأحوال ، هو أن تضمن للفرد حرية العقيدة ، حرية الكلام وحرية التصرف .

فلنتخيل قوة انفجار تلك التوكيدات فى عام ١٦٧٠ ولن يأخذنا العجب

إذا رأينا سبينوزا يبدو لمعاصريه « المخرب المنقطع النظير » ، « واللعين الرجيم » . ذلك اليهودى سليل الجنس البغيض ، والذى أثار على نفسه سخط اليهود فطردوه ، والذى يمضى حياته فى عزلة وانفراد ، غير ملق بالا إلى المتعة والشهرة والمال ، المنشغل بتجهيز المناظير وبالتفكير ، كان قد أصبح موضع الفضول والدهشة والحقد . كان يدعى « بندكتوس » Benedictus وكان أصوب أن يدعى « مالدكتوس » Maledictus ، كان شائكاً كما تغدو أرض لعنها الله شائكة . لقد تولد الالحاد مع النهضة الايطالية التى بعثتها الجاهلية ، واستشرى بوساطة ماكيافيللى Machiavel ، وأريتان Arétin ، وفانينى Vanini . وكان من أعظم الذائدين عنه هربرت شربرى Herbert de Cherbury ، وهوبز Hobbes : والآن يظهر أكثرهم شؤماً — سبينوزا (١) .

واليوم نضع سبينوزا فى صفوف البنائين ، بين البنائين المتسامقين المتازين . كان يحتج بشدة ضد الفكرة السائدة فى أنه سوف يهدم ولا يبنى ، ولن يفهم « البحث اللاهوتى السياسى » فهماً تاماً إذا لم نلاحظ فيه هذا العزم الصحيح . ومن باب أولى ، فان كتابه « علم الأخلاق » *L'Ethique* الذى ظهر عام ١٦٧٧ بعد وفاته ، يقدم أفخم قصر من التصورات والأفكار تختلط عقوده بالسماء . إن « علم الأخلاق » الهندسى التأليف والذى تختلج فيه مع ذلك نفثة من الحياة — يتخذ ما هو إلهى وما هو بشرى مادة له ويجمع بينهما فى باب واحد ، ويسجل على مقدمته « أن الله هو الكل والكل هو الله » . ولكنك تجد جسارته الكبرى فى حافظة البناء ، حتى إن أولئك الذين لم يؤتوا الموهبة الميتافيزيقية يجدون دائماً مشقة كبرى فى التطلع إليه . كان سبينوزا يشرح رسومه وقضاياه واستنباطاته فيقول : أعنى بلفظ « علة ذاتية » Cause de soi ما تتضمن ماهيته وجوده ، أو مالا تتصور طبيعته إلا كموجودة . وأعنى بلفظ « جوهر » Substance ما يقوم بذاته ويتصور بذاته ، أى ما يمكن تصوره دون حاجة إلى تصور شىء آخر . وأعنى بلفظ « الخاصية » attribut ما يتصوره العقل فى الجوهر كمكون لماهيته . إذن هناك جوهر وحيد مشكل من عدد لا متناه من الخواص ، تدل

(١) كتاب عن طائفة الدجالين ، بقلم كرستيان كورتلتى . *De tribus impostoribus magnis liber*, cura editus Christiani Kortholti, S. Theo. D. et Professoris Primarii Kilonii, 1680.

كل منها على ماهية أبدية لا متناهية : الله . كل شىء موجود فهو فى الله ، ولا وجود لشئ ولا شئ يتصور إلا بوجود الله . إن الله فكر ، إنه امتداد ، والانسان روحا وجسما حال « للكائن الأسمى » ؛ وهو بهذه الصفة يرمى إلى حفظ كيانه بمجهود يسمى « إرادة » إذا تعلق بالروح ، و « شهية » إذا تعلق بالجسد ، و « رغبة » إذا وعت الروح هذا المجهود ، بمعنى أن الرغبة تصبح العنصر الأساسى للحياة الأخلاقية .

عندئذ تنقلب كل القيم الثابتة رأساً على عقب .

كان الناس يعدون أنفسهم نقطة البداية ، أنفسهم ، ومظاهرهم الزائلة ، وعاداتهم ، وضعفهم ، ونقائصهم ، ورذائلهم ؛ وبنزوة من نزوات خيالهم المناقق توهموا إلهاً على شاكلتهم ، إلهاً جشعاً ، مغرضاً ، يستهويه الملق ويميل إلى الانتقام والقسوة . أما هو ، سبينوزا ، فعلى النقيض ابتدأ بالله ، وأرجع الانسان إلى ذلك الاله المنطقى . لم يعد الانسان إمبراطوراً فى امبراطوريته ، بل هو يندمج من الآن فصاعداً فى النظام العالمى . ولنفس السبب لم تعد مشكلة الشر تعرض بعد . « فكل ما هو موجود فهو سواء بسواء وجه لازم للماهية الالهية ؛ وكل قوة عاملة ، هى فى حدود عملها ، مظهر للقدرة الالهية ؛ وعلى هذا ، فبما أن الله هو الخير المطلق ، فكل مخلوق له من الحق بقدر ما له من قدرة ، وكل فعل بما له من صلة اللزوم عينها بكينونة الله فان حدوثه يكون بنفس الشرعية . . . (١) »

واتخذت مسألة الحرية لوناً آخر ؛ لم تعد المناقشة تدور حول الحرية فى عدم الاكتراث liberté d'indifférence ، بل أصبحت تدور حول تشبيه الفكر بجوهر يدرك أنه ليس مدفوعاً إلى العمل إلا من تلقاء نفسه . فالرجل عبد إذا عجز عن التحكم فى شهواته وكبح جماحها ، أما وقد أصبحت العاطفة لا تعد « معلولا » بمجرد أن يكون عنها فكرة واضحة ومميزة ، فان الرجل يصبح حراً عندما يستطيع أن ينظم وأن يقيد عواطف جسمه طبقاً لأوامر إدراكه ، وأن يوجهها نحو محبة الله .

---

(١) ليون برانشويك ، سبينوزا ومعاصروه ، الطبعة الثالثة ، ١٩٢٣ ص ١٠٥ .
Léon Brunschvicg, *Spinoza et Ses contemporains*, 3e éd., 1923, p. 105.

واتخذ البحث عن السعادة أيضاً معنى آخر ، وغير طريقه حتى وصل فى النهاية إلى هدفه . ليست السعادة إرضاء الشهوات ، كما تخالها المخلوقات الخشنة الفجة التى لا تسمو إلى ذروة المعرفة . وهى ليست أيضاً اطراح كل متع هذه الدنيا ، انتظاراً لفردوس يلذ للأديان المختلفة أن تتخيله فى هذا الشكل أو ذاك . السعادة هى إدراك الحق ، هى إذعان المرء لقوانين النظام الشامل ، والعمل على تحقيقه فى كيانه الذاتى . إن سبينوزا يظن أنه قد حظى بهذه السعادة التى تجلب معها السلام ، وهو يرثى لأولئك التعساء التائهين ويشرح لهم كيف تفيد فلسفته حتا فى ممارسة الحياة :

« ١) فنحن ، طبقاً لهذه النظرية لا نتصرف إلا طوعاً لارادة الله ، ونشترك فى الطبيعة الالهية ، ويزداد هذا الاشتراك كلما ازداد كمال أعمالنا وكلما ازداد إدراكنا لله ؛ فمذهب مثل هذا إذن — فضلا عن أنه يهيئ للعقل هدوءاً تاماً — له أيضاً فضل إفهامنا ماهية سعادتنا القصوى أى معرفة الله التى لا تدفعنا إلا إلى الأعمال التى تنصحنا بها المحبة والشفقة . ٢) إن قاعدتنا تعلمنا أيضا أن ننتظر حسن الحظ وأن نتحمل سوءه بنفس الروح : لأن الواقع أن كل الأمور تنتج عن الأمر الالهى الأبدى ، بلزوم مطلق ، كما ينتج من ماهية مثلث أن مجموع زواياه يساوى زاويتين قائمتين . ٣) ومن وجهة نظر أخرى ، فان قاعدتنا مفيدة أيضاً فى الحياة الاجتماعية . ذلك أنها تعلمنا التحرر من الحقد والاحتقار ، وألا نكن لأحد سخرية أو حسداً أو حقداً . وتعلم أيضاً كل فرد أن يقنع بما يملك ، وأن يكون فى عون الغير ، لا مدفوعاً بشفقة تسوية باطلة ، أساسها التفضيل والخرافة ، بل طوعاً لأمر العقل وحده . . . (١) »

إن الرجل الواثق بالأبدية لم يعد الرجل التقى الذى يتطهر من الخطيئة الأولى ويكسب السماء بفضائله ، بل الرجل الحكيم :

« إن المبادئ التى وضعتها توضح امتياز الحكيم . . . فروح الحكيم من العسير أن تتعكر ، إن له بنوع من الضرورة الأبدية وعياً بذاته وبالله وبالأشياء ولذا فلن ينقطع كيانه ، ولذا يملك سلام الروح الحقيقى إلى الأبد . (٢) »

---

(١) علم الأخلاق ، القسم الثانى ، عن الروح ، *Éthique*, deuxième partie, « De l'âme »

(٢) « علم الأخلاق » ، الفصل الخامس ، عن حرية الروح .

لم يكن الأمر يتعلق بضرب من الحكمة الرخيصة ، المبتذلة السهلة ، بل بحكمة أكثر رواقية من حكمة الرواقيين Stoïciens ؛ حكمة منسجمة ، تكون أخيراً جديرة بمواجهة المسيحية . حتى إنه كان فى مقدور الناس أن يترقبوا معركة فكرية كبرى ، يتقابل فيها على التحقيق المسيحى والحكيم . وإذا صح ، كما قيل ، أننا نجد فى « الأفكار »(١) Les pensées وفى علم الأخلاق L'Éthique أكمل وصف لحالتين على طرفى نقيض يهدف إليهما المثل الأعلى للضمير الدينى من جهة ، والمثل الأعلى للحقيقة الفلسفية من جهة أخرى » (٢) ، فما أنبل الكفاح الذى كنا نستطيع أن نشهده بين هاتين النظرتين نحو الحياة ، بين هاتين الحالتين للفكر، بين هاتين المملكتين ! . . . إلا أن بسكال Pascal ، كما لاحظنا ، لم يكن له أتباع ، وبينوا سبينوزا ، كهندس أفكار ، لم يفهمه أحد فى ذاك الوقت . إنه سيأخذ بثأره فيما بعد ، وسيوحى بالميتافيزيقا الألمانية ، وسنرى فى ظهور « علم الأخلاق » لحظة حاسمة فى تاريخ الغرب (٣) . بيد أن الوقت كان مبكراً فى سنة ١٦٧٧ ، وكان علم الأخلاق غذاء دسما جداً ، وإذا كان « البحث اللاهوتى السياسى » قد فهم بصورة أوضح فيخيل إلينا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى ما فيه من إنكار وقوة هدامة .

مذهب سبينوزا — ما أكثر أولئك الذين ناقضوه دون أن يتفهموه ، دون أن يطالعوه ، أو يكلفوا أنفسهم عناء الاقتراب منه . . . ! حتى بين أولئك الذين بذلوا مجهوداً أكبر ، ما أكثر من لم يستطيعوا أن يوثقوا ألفتهم به ، حتى يتحدثوا عنه حديثاً صحيحاً ، فما صدر عنهم إلا صياح باطل ! فعلى الأقل كان فى مقدور الديكارتيين — أقربائه — أن يقبلوه ، إلا أنهم فى هذا بالذات كانوا مرتبكين ، بل رفضوا قبوله : إذ كانوا يخجلون من « ابن عمهم » هذا الذى يعرض سمعتهم للخطر . ولقد رفضه بيكر مؤلف «العالم المفتون» *Le Monde Enchanté* ورفضه أيضاً جان لكلير J. Leclerc الذى قال عن سبينوزا إنه

---

(١) « الأفكار » كتاب باسكال وهو هنا يمثل المسيحية . [المترجمان]

(٢) ليون برانشفيك : سبينوزا ومعاصروه ، الفصل الرابع عشر صفحة ١٥٠ .

(٣) ليون برانشفيك : تقدم الضمير فى الفلسفة الغربية ، ١٩٢٧ صفحة ١٨٨

« أشهر كافر فى وقتنا هذا » ، — وأكثر من ذلك فقد دفعه بالبرانش سبعداً عن نفسه تهمة كان أعداؤه يجدون سروراً خبيثاً فى التنويه بها ، واعتقد أصدقاؤه أن عليهم أن يدفعوها . وقد بين مرتين على الأقل ، فى عام ١٦٨٣ فى « تأملات مسيحية *Méditations Chrétiennes* » ، وفى عام ١٦٨٨ فى « محادثات عن الميتافيزيقا والدين » *Entretiens sur La Métaphysique et sur La Religion* كم كان الناس يخطئون لا فى حق إيمانه فحسب بل فى حق فلسفته أيضاً ، بتشبيهها بفلسفة « سبينوزا التعس » .

كان سبينوزا يحتل مخيلة بايل . ولطالما ذكر اسمه ، ولطالما نوه فى غمار بحثه فى إلحاد قديم ، بما بينه وبين مذهب سبينوزا من تشابه . وهو لم يستطع أن يملك نفسه عن الاعجاب بالرجل الذى كان يبغض إلزام الضمير ، والذى تجاسر فأطلق لتفكيره عنان الحرية ، والذى عاش فى نبل وكرامة ، ومات دون أن يتنكر لمبدئه . أما كون سبينوزا أول رجل أجمل الالحاد فى قاعدة ، وجعل منه مذهباً ، متماسكا محكماً طبقاً للأصول الهندسية ، فما كان بيير بايل يرى فيه موضعاً للمؤاخذة . بيد أن ميتافيزيقا سبينوزا تضمنت نقطة استهجنها بايل . وإذا رأيناه يعد مذهب سبينوزا أفظع الفروض التى يمكن أن يتصورها الانسان ، وأسخفها ، وأشدها تعارضاً مع أوضح أفكار العقل البشرى ، فما كان فى ذلك يتذرع بتفنيد هذا المذهب ليشرحه ، بل كان مخلصا فى اعتراضه عليه ، ولطالما خيل إلى الناس أن هذا الاعتراض حيلة من حيل الجدال ، فكان هذا مثار غضبه ومرجل سخطه . ذلك أن مسألة الشر كانت شغله الشاغل ، فما من شئ أكثر تأثيراً عليه منه ، وكان الحل الذى قدمه سبينوزا يبدو له كأسوأ حل بين الحلول المعروضة . كيف ؟! هل يولد الكائن «اللاستناهى» فى ذاته كل الحماقات ، كل الهواجس ، كل جرائم الجنس البشرى ! إنه لا يكون فى كل ذلك علة فاعلة فحسب بل معلولا أيضاً ، ويتحد بها بأوثق اتحاد يمكن أن يتصور ! ذلك لأنه اتحاد فعال ، بل هو فى الحق «وحدة حقيقية» ماداست الكيفية لا تفترق فى الواقع عن الجوهر المتغير . « لأن يضمر الناس البغض ، بعضهم لبعض ، ويتبادلوا الاغتيال فى ركن من أركان غابة ، ويجتمعوا فى جيوش لسفك الدماء ، ولأن يلتهم الظافرون المهزومين فى بعض الأحايين ، هذا شئ معقول : لأننا نفترض أنهم يتميزون بعضهم من بعض ،

ولأن صالحى وصالحك يتولد عنهما أهواء متضاربة . أما ألا يكون الناس سوى كيفيات مختلفة لكائن واحد ، وبذلك يكون الله وحده هو الذى « يفعل » ، وأن يتحول الله ذاته إلى تركى حينا وإلى مجرى حيناً آخر ، فتنشب الحروب والمعارك : فهذا ما يفوق كل شناعة وكل تخريف باطل لأشد العقول لوثة بين نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية (١) . »

لم يكن بين الفلاسفة إذ ذاك من يستطيع أن يقف أمام سبينوزا كند ، وأن يستوعب «علم الأخلاق» ، ويرد على فلسفته قادراً على تفنيدها ، غير ليبنتز . أما البحث اللاهوتى السياسى فمسألة أخرى : فليس يلزم أن يكون المرء عالما أكابر كيا لكى يتفهمه ، ولكى يستخلص من ثنايا صحائفه حججاً ضد الكتاب المقدس ، وضد سلطة الملك . من هنا كان رواجه ، بالرغم من الرقابة ، وتحت عناوين غير صحيحة ؛ ومن هنا كانت عاصفة النقد التى قوبل بها ، ومن هنا كان الالتجاء إلى السلطات المدنية ، والتحريم والمصادرة ، حتى فى هولاندة الحرة .

ومن هنا نفهم أنه يوجد هناك فيما يتعلق بهذا الكتاب وتأثيره شهادات متناقضة . فمثلا يقول أرنو إن سبينوزا أصل التحرر ، بينما يرد جوريو Jurieu بأنك لا تجد بين كل مليون من الدنيويين عشرة رجال سمعوا باسبينوزا . ويدعى ديبو Dubos أن قراءة سبينوزا وفهم مؤلفاته تقتضى تعود الجلد على المطالعة ، وأن المتحررين يعيشون وكأنه لا توجد حياة أخرى دون أى اهتمام بمطالعة أسبينوزا . وهذا أيضاً هو رأى فينلون — : فالبدع لدى المتحررين فى عصره ليس فى اتباع اسبينوزا ؛ بينما يؤكد الأب « لامى » أن أتباع اسبينوزا يزدادون عدداً يوما بعد يوم — : فان أخطاءه قد أفسدت أمخاخ كثير من الشباب ، كما قال له رجل يسمح له سركزه بالاطلاع على مجريات الأمور . أولئك الشهود يتناقضون ولكنهم جميعاً على صواب . ليس لاسبينوزا أتباع بمعنى الكلمة خارج حدود هولندا وألمانيا . يقول بايل : « أولئك المشتبه فى اتباعهم مذهب اسبينوزا قلة ضئيلة وبينهم القليلون الذين درسوه فعلا ، وبين هؤلاء الأخيرين قل من فهموه ولم تثبط همتهم لما لقوا فى مذهبه من صعوبات ونظريات مجردة ، إدراكها أمر محال . ولكن هاك حقيقة الأمر : فالناس يعدون كل من

---

(١) بايل ، القاموس ... باب اسبينوزا ، Bayle, *Dictionnaire*, art. Spinoza.

لا دين لهم ولا إيمان ، ولا يخفون ذلك ، من مذهب اسبينوزا (١) . »

من هؤلاء من لحق بالمتحررين تغذية لجرأتهم وتشجيعاً لعصيانهم ؛ ومنهم من ذهب إلى الايطاليين غير المؤمنين : فانك لواجد نفثات من روح اسبينوزا فى الصفحات التى سطرها الكونت « البرتو دى باسيرانو » ضد الدين وضد نفوذ روما السياسى معاً . ومنهم من قصد ألمانيا لتغذية الالحاد الألمانى مثل « ماتياس كنوتسن » Matthias Knutsen ومذهبه الـ Conscienciari ، وستوتش F. W. Stosch والآخرين . ومنهم من مد بالبراهين الانجليز المؤمنين بالله الناكرين للوحى Déistes أمثال شافتسبرى وكولنز وتندال وخاصة أكثرهم صخباً : جون تولاند John Toland !

***

جون تولاند — ما أغربه من رجل ! كان مفتوناً بعقله . *Christianity not Mysterious* ! صيحة أطلقها فى كتابه الذى جعل منه رجلا مشهوراً فى عام ١٦٩٦ ؛ المسيحية لا أسرار فيها — لهذا السبب البسيط الرائع ، وهو أنه ليس هناك أسرار . فالسر ، لفظ وثنى احتفظنا به كما احتفظنا بغيره من ألفاظ، هو إما خرافة يجب أن نقضى عليها وإما صعوبة عارضة ينبغى أن نذللها . إما أن المسيحية تتفق مع العقل ولا تمثل إلا مجرد ارتضاء للنظام الشامل ، متجردة عن كل مايخرج عن هذا الارتضاء نفسه ، كالتقاليد والمذاهب والشعائر الدينية، والعقيدة والايمان ـ وإما أنه يستحيل عليها أن تعيش ؛ فما من شئ فى العالم يمكن أن يكون فوق العقل وما من شئ يمكن أن يتعارض مع العقل .

وما كان جون تولاند تنقصه المعارف ؛ لقد نال درجة أستاذ فى الآداب من جامعة جلاسجو ، وكان قد درس فى أيدنبرج وليدن وأكسفورد . وكان على دراية بالتاريخ القديم : لكى يثبت أنه لم يكن إلا دجلا ، وأن مؤرخيه لم يعملوا إلا على خداع العالم . وكان ملما بالكتاب المقدس : لكى يقول إنه مشكوك فى صحته ، وإن المعجزات التى يسردها يمكن ردها إلى أسباب طبيعية ، ولكى يقطع برأيه ، ويهذى ، ويخترع ويخلط كل شئ . وكان

---

(١) بايل ، القاموس ... باب اسبينوزا .

يتقن الأدب والشعر وضروب البلاغة ؛ لكى يعلن أن أقوال أولئك الدجالين الذين تقدسهم الأديان المختلفة إن هى إلا قناع زائف يلجئون إليه لكى يقودوا الشعوب ، مرغمة ، من الأنوف . كان مفسداً ومزهواً ، ولد لكى يثير الفضائح ، يسعد بما يحدث من ضجة ، ويختال إذا واتاه الحظ ، ولا ينزعج إذا قذف بالحجارة لأن سقوطها يثير أيضاً بعض الضجيج .

ليس لنا أن نبحث لدى جون تولاند — الذى يضيف قوته الهدامة إلى « قواه » التى سردناها — عن أفكار مبتكرة . فكثيراً ما نسمع صدى صوت فونتنيل وبايل وبيكر وفان ديل وهوبز وسبينوزا عندما نطلع على كتبه ، ولو ساورنا الشك فى ذلك التأثير لكان ما يذكره هو من بيانات صريحة عنهم يؤكد لنا أن الأمر ليس مجرد تشابه قواسه المصادفة بل إن ما وصلنا إليه صحيح . كان رأسه مكتظا بمطالعاته ، وكانت مقتطفات من أفكار المتقدمين عنه تظهر فى كتبه . لا تبحث عنده عن أفكار مبتكرة ، بل عن انفعال حماسى ، عن هياج شديد : هو انفجار لشعور كبتته أمداً طويلا الكاثوليكية الأرلندية ، والتعصب البوريتانى ، والتأدب الاجتماعى وليد الوقار ؛ حتى إذا تحطمت القيود ذات يوم انفجر فى وقاحة وسفه .

ولد جون تولاند فى أيرلاندا كاثوليكيا ، ثم اعتنق البروتستانتية ؛ ويقول مفتخرا إنه نشأ فى أحضان الخرافة والوثنية ، إلا أن عقله ، معانا ببعض الأشخاص ، كان الأداة السعيدة التى غيرت عقيدته . فهو مذ بلغ السادسة عشرة يضمر للبابوية نفس البغض الذى لم يبرح يضمره لها دائما . وكان متحمساً أيضاً ضد الكنيسة الأنجليكانية ، وضد كل كنيسة تحاول أن تعتدى على شخصية حانقة أو تمس حرية لم تعد تحتمل ظل النير . بعد نجاح كتابه *Cristianity not Mysterious* رحل إلى أيرلاندا لكى يتذوق متلذذا سمعته الشائنة ، ولكى يخطب ويحاضر رواد المنتديات العامة فى ادعاء متحذلق وتظاهر . ولكن هذا عاد عليه بشر وبيل ؛ فقد أصبح مادة للتشنيع ، منبوذا مطارداً ، وألقى الناس به إلى الحضيض وأصبح خارجا على القانون .

يصف العالم الرياضى مولينو هذا السقوط للفيلسوف لوك الذى كان قد أوصاه بتولاند عندما كان يقدره فيقول : «اضطر تولاند أخيراً أن يهجر المملكة . لقد ستجلب هذا الرجل لمسكين على نفسه بسلوكه المتهور ، ثورة شاملة

حتى أصبح من الخطر على أى شخص أن يشتبه فى محادثته له مرة واحدة . الأمر الذى جعل المحافظين على كرامتهم يتجنبونه ، حتى إنه بلغنى أخيراً أنه لا يجد ما يمسك به رمقه ، وأن أحدا لم يعد يقبله على مائدته . ولما نفذ النزر اليسير من المال الذى تبقى لديه اضطر أن يستدين بالربا الفاحش ، وعجز عن أن يدفع ثمن شعره المستعار وثيابه وأجر غرفته . وأخيراً لسوء طالعه وقع كتابه فى يد البرلمان وحكم عليه « بالموت حرقا » . . . وعلى إثر ذلك لاذ بأذيال الفرار من هنا ولا يعلم أحد أى طريق اختار . . . »

وحالة الخروج عن القانون هذه تفسر لنا حالته الذهنية إلى حد ما . إن نفحة الأرستقراطية التى تجدها لدى المتحررين الفرنسيين، وذكاء بايل الخالص، وعزة سبينوزا ، بعيدة عن طبعه . كان يحلم بأن يكون مؤسساً لدين جديد كمحمد ولكنه كان يفتقر إلى القوة والهيبة . كان جافا ، شرسا ، مستعملا كل وسائل لسان متهجم سليط ، ووسائل عقل يسرع فى تلبية مطالب الحقد. لشد ما كان يكره القسس ! كل القسس ، قسس الحاضر وقسس الماضى سواء بسواء ؛ بادئا بكهنة « قبيلة ليفى » الذين لم يكونوا إلا دجالين . فهو يهينهم ويصفهم بأنهم محتالون ومجرمون . فهو أصلا ضد الاكليركية .

وكان فى انجلترا نزاع سياسى : فالى من سيؤول العرش بعد موت الملكة آن ؟ ظهر تولاند فى مؤلفه *Anglia Libera* سنة ١٧٠١ متحزبا لأسرة « هانوفر » مناديا « فلتتجنب انجلترا خطر الوقوع من جديد تحت نير البابوية ولتحتفظ بحريتها السياسية أغلى نعمة بين النعم ! » وأغلب الظن أن إنتاجا كهذا كان يروق لأسرة « هانوفر » . حينئذ أصبح تولاند مندوبا سياسياً للحكومة . وكثيراً ما كان يسافر مكلفا بمهام سرية فى الخارج . فقد رؤى فى برلين وفى هانوفر وفى دسلدورف وفى فيينا وفى براج وفى لاهاى . ولقد استجوبت صوفى شارلوت ، ملكة بروسيا — التى سبق أن طلبت من ليبنتز أن يشرح لها سر الحياة — ذلك الرجل الغريب عن فلسفته ؛ وأثارت منازعات بينه وبين العلماء وشراح الكتب المقدسة ، المحيطين بها . لذلك بعث إليها ، فى عام ١٧٠٤ برسائل Letters to Serena لعلنا نجد فيها أقوى أفكاره .

إنه يشرح لها أن الاعتقاد بأبدية الروح ليست عقيدة مسيحية محضة ، بل عقيدة وثنية ، وأن قدماء المصريين آمنوا بها من قبل . وأن الاعتقاد بالله

ذى شخصية يرجع إلى الوثنية ، وأن الناس يضفون مجداً إلهيا على مخلوقات من جنسهم ، ويقيمون لها المعابد وينشئون المذابح ، ويقيمون لها التماثيل ، ويرسمون الكهنة ومقدمى القرابين . ولم يمض طويل وقت حتى اعتاد الناس أن يتصوروا الاله على صورة ملوكهم : وذلك هو ساحدا بالناس إلى أن يتخيلوا إلها غريباً يسير على هواه ، غيوراً ، منتقما ، ظالما . لقد سمعنا من قبل كل هذه الأفكار وعرفناها ، فلنمر عليها سراعا . وتولاند ، فى ميدان الأفكار ، هو الرجل الذى كتب خصيصاً ليفند أخطاء سبينوزا ، ولكنه تأثر بسبينوزا ، حتى إنه هو الذى استعمل لفظ حلولى Panthéiste . ولم ينظر إلى هذا الأمر عن كثب ولم يكن حساساً تجاه المتناقضات .

وفى نفس الوقت ، كم يتأيد شعورنا الثانى : ألا ما أعنف المشاعر ! وما أشد الغضب ضد القداسة ! إن تولاند يتحمس ويهتاج فور ما يلمس باب «الخرافة» ويذهب فى بحثه عما يسميه الاعتقاد الباطل إلى غاية لحمنا ، ودمائنا . إنه يراه فى كل مكان ، ولا يرى شيئا غيره ؛ إنه حصار . إن الخرافة تترصد المرء بمجرد ولادته :

« إن القابلة التى تخرجنا إلى الدنيا تتناولنا بطقوس باطلة ، والنساء اللواتى يحضرن الولادة يعرفن عدداً لا نهائيا من التعاويذ يعتقدن أنها تجلب للطفل المولود السعادة وتبعد عنه الشرور . ولهن تخمينات وأقوال يزعمن أنهن يعرفن بها حظه المستقبل . ولا يقل القسيس نشاطا فى بعض الأحوال عن أولئك السيدات ، إذ يقبض سريعا على الطفل لوضعه فى العبودية ، ويطلعه على أسراره متفوها ببعض صيغ تبدو كالسحر ، مستعملا بعض الملح ، أو الزيت أو الماء ، أو — كما يحدث فى بعض البلاد — ماساً إياه بالحديد أو بالنار قائلا إنه يمتلكه ، ويسمه بسمة السلطان الذى سيفرضه عليه (١) . »

وحين يشب الطفل عن طوقه تزداد معه قوة اعتقاداته الباطلة ؛ إذ تحكى له المرضعات قصصا عن الذئب الخاطف ، والخدم قصصا عن العفاريت . وتحكى له المدارس عن الجنيات Génies ، وعن عرائس الماء Nymphes ، والعفاريت Satyres ، وأعمال سحر وأحداث عجيبة من هذا القبيل ؛ وهناك يقرأ شعراء

---

(١) الرسالة الأولى إلى سيرينا : عن أصل الاعتقادات الباطلة وقوتها .

وقصصيين وخطباء ، كلهم محترفو كذب ودجل . ولا يصبح شباب الجامعات أحسن حالا ولا أكثر حكمة . وليس المدرسون أحراراً ولا مخلصين ، لأنهم ملزمون بمجاراة قوانين بلادهم . « إن الجامعات لهى المشاتل الحقيقية للاعتقادات الباطلة . . . »

فالاعتقادات الباطلة تنتظرنا طول الحياة وتخدعنا ، حتى إذا حان الحين ، التمسنا من الاعتقادات الباطلة تحقيق آمالنا ونسبنا إليها مخاوفنا . ولكن تولاند برئ من الاعتقادات الباطلة ؛ بل قد ولد لكى يحاربها ؛ إنه يملك اليقين . ولم يساوره شك فى ذلك أبداً ، بل أشار إلى هذه الخيلاء وتلك الجسارة وهذا الفتون حتى فيما كتب على قبره : « هذا ضريح جون تولاند ، المولود فى إيرلاندا والذى درس فى إيقوسيا وفى إيرلاندا وأيضاً فى أكسفورد لما بلغ مرحلة الشباب. وبعد أن تردد على ألمانيا أكثر من مرة ، أمضى سنى رجولته فى ضواحى لندن . درس كل الآداب وعرف أكثر من عشر لغات . كان بطل الحق ، والذائد عن الحرية ، لم يكن متحزبا لأحد ولا كان عميلا لأحد . ولم يعقه التهديد ولا الشرور عن الوصول إلى نهاية طريقه المختار ، مقدما الخير على صالحه الخاص . لقد رجعت روحه إلى رب السموات ، من حيث جاءت من قبل . إن بعثه للأبدية لأمر مؤكد ، ولكن لن يوجد « تولاند » آخر فيما بعد . ولقد ولد فى ٣٠ نوفمبر ؛ ولتبحث عن البقية فى مؤلفاته . . . »

***

أولئك هم العقليون .

لقد رحلوا نحو ميادين سوف تسود فيها البداهة والمنطق والنظام ؛ جارين معهم رفاقا يختلفون عن فئتهم ، كما لبرانش الذى تبعهم متبرما محتجا ضدهم . وكانوا يهدمون العوائق التى لا تزال تنتثر على طول طريقهم . وكانوا ينتقدون قائلين : نحن فى عصر الرقابة Siamo nel secolo dei censuristi يبدو أننا نعيش فى عصر تعقب الأخطاء : We live, it seems, in a faultfinding age (١)

---

(١) جريجوريو ليتى : المسرح البريطانى ، ١٦٨٤ ، Gregorio Leti, *Il Teatro britannico* مقدمة . . . Aaron Hill, *The Ottoman Empire*, 1709, Préface

وكانوا يهاجمون بلا هوادة ؛ ويحملون على الطاعة الذليلة ، والعادات الخاملة ، وكتلة الأخطاء ، والحماقات . ويسترسلون فى سهمتهم — الضرورية دائما — لتخليصنا لا من ضلالنا فحسب ، بل من جبننا أيضاً . وإذا هم قالوا إنهم يعملون فى صالح المؤمنين أنفسهم ، بالزامهم على تبرير عقيدتهم ، وعلى اتخاذها بعد اختيار مقصود ، لا على أنها قبول سلبى أعمى : فهم فى هذا المعنى لا يتعدون الحقيقة . وهم حقيقون بالتقدير ، لاخلاصهم ، وشجاعتهم ، وجسارتهم ؛ لأنهم لم يختاروا الجانب اليسير المفيد ، بل الجانب الآخر ، عارفين أنهم سيلاقون فى أول الأمر عناء شديداً . ولم يكن فى صفهم العدد ولا القوة الموطدة ، بل كانوا على النقيض أقلية ضئيلة ، ويعلمون جيداً أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا إلا على مجهودهم وحده . « إن العناء الذى لابد من أن نجده فى البحث عن الحقيقة بأنفسنا ، لشديد بالنسبة إلى السهولة التى نجدها عندما نتبع ، مغمضى العيون ، الطريق الذى يتبعه الآخرون أيضاً ، مغمضى العيون (١) . » كلما طال تسلط الضلال وسيادته ، وجبت محاربته بشجاعة : « أعترف بأن محاربة الضلال قبلما يزيد الزمن من تشبث جذوره فى عقول شعب بأسره ، لأقل تهييجاً للخواطر من محاربته بعد ما تؤصله عراقته . ولكن بما أنه لا تقادم prescription يسرى على الحقيقة ، فليس من الصواب أن ندعها على الدوام مقبورة فى غياهب النسيان ، بحجة أنها لم تكن معروفة لنا أبداً (٢) » وإنه لمن أجل هذه المشقة التى يلاقونها ، وهذا السخط الذى سيسببونه ، ما نراه من تقديرهم لضرورة رسالتهم ، وعظمتها . — « إنى لأقدر كل التقدير صفات رجل يسبح ضد تيارسيل ، أكثر من رجل يسلم نفسه لأمواجه ، كما أنى أقدر تقديراً لا حد له ، بصيرة العقل وصلابته فيمن يبحث فى كل شئ ، ويخالف فى بعض الأحيان الأفكار الموروثة من قديم ، أكثر مما أقدر أولئك الذين يرثونها عن أسلافهم ، ولا يحتفظون بها غالباً إلا بسبب قدمها أو نفوذها (٣) . »

---

(١) كلود جلبرت : تاريخ كالاجيفا ، أو جزيرة العقلاء ، ١٧٠٠ ، Claude Gilbert
Histoire de Calajéva, ou de l'isle des hommes raisonnables

(٢) بيير بايل : أفكار مختلفة ... بمناسبة المذنب ، ١٦٨٣ ، § ٩١ ، Pierre Bayle
Pensées diverses ... à l'occasion de la Comète

(٣) تيسو دى باتو ، أسفار ومغامرات جاك ماسيه ، ص ٢٨ ، Tyssot De Patot
Voyages et aventures de Jacques Massé

شئ واحد فقط : أنهم جعلوا يظهرون أكثر عجرفة من أكبر المتدينين المتعجرفين ، الذين كانوا يبغضونهم . لم يسائلوا أنفسهم حتى ، لماذا كان الناس من مسلمين و يهود ومسيحيين ، يصلّون على مر العصور ، إن لم يكن فى نفوسهم قبس دينى لا تستطيع قوة أن تطفئه ، بل ظنوا ، لعدم تعمقهم ، أنهم قطعوا كل قول ، عندما تحدثوا عن الضلال والخداع . ظنوا أنهم قطعوا كل قول ، حينما رددوا كلمات الاعتقاد الباطل ، والخرافة ، وما إليها ، ولم يسائلوا أنفسهم عما إذا كانوا قد أدمجوا فى هذه الكلمات نفسها ، اعتقادات صحيحة ، وخرافات محققة ، وعقائد شرعية وضرورية . لقد دفعتهم ، عجلتهم وزهوهم ، إلى تشبيه التاريخ كله برقعة من الورق ، زاخرة بالطيات المغلوطه : وكان عليهم أن يزيلوا هذه الطيات ، وأن يرجعوا إلى الصفحة الناصعة البياض ، وهذا كل ما فى الأمر : كأنما هذا شئ سهل ، كأنما هذا شئ ممكن ، كأننا فى طريقنا على مر الأجيال ، لم نجمع إلا أخطاء . لم يروا إلا البؤس والاجرام ، ناسين التضحية والبطولة ، والقديسين والشهداء . دفعهم الكبر إلى الاعتقاد بأنهم وجدوا الحقيقة كاملة ، وجدوا النور الذى يستطيع أن يبدد كل ظلام ، حتى وصل بهم الأمر إلى تأليه الانسان : « نحن ، باتباعنا العقل ، لا نعتمد إلا على أنفسنا ، وبذا نغدو من بعض الوجوه آلهة (١) . »

---

(١) كلود جلبرت : تاريخ كالاجيفا ... ص ٥٧ .

الفصل الثانى

إنكار المعجزة

المذنّب ، الهواتف الإلهية ، السحرة

كانت المعجزة عدو العقليين ، بطريقتها القاسية فى خرق قوانين الطبيعة ، وبنفوذها الغريب . كانت تستهوى الجماهير : والحق أن العقليين كانوا يبغون اكتساب الجماهير ، المؤمنين ، والمصلين فى الكنائس والنساء : وكان نجاحهم رهناً بذلك الثمن .

إنها المعجزة — فيجب حيالها الحرص والاحتياط : حذار من مهاجمتها دون احتراس . كان فى مقدورهم على الأقل أن يهاجموا بعض الخرافات المعينة ، ولم تكن تنقصهم ، فهى متوافرة . وبذا شرعوا يحملون على هذا المعتقد الباطل أو ذاك ، مظهرين ما فيه من ضرر وسخف ، ثم ينفذون إلى أسباب الضلال — السلطة ، والتراضى والعادة ، ولما كانت السلطة والتراضى والعادة هى عمدة الاعتقاد بالمعجزة ، فقد حققوا أهدافهم بهذا اللف والدوران .

وكانت المعركة على خطوات ثلاث .

***

صحيفة العلماء ، يوم الاثنين أول يناير ١٦٨١ :

« يتكلم العالم كله عن المذنب الذى لا شك فى أنه أهم بدعة منذ بداية هذا العام . إن الفلكيين يراقبون سيره ، والشعب ينسب إليه كل الويلات » .

والذى حدث أنه فى ديسمبر عام ١٦٨٠ ظهر مذنب فى السماء ، وفى السنوات التالية ظهرت مذنبات أخرى ، وكانت تلك الظاهرة إيذاناً بعودة الناس إلى نزاع قديم ، لكن بنغمة لم يسبق لها نظير .

كان البعض يقولون إن المذنبات خطرة فى ذاتها . فمادتها تتكون من

كتلة من الغازات التى تتصاعد من الأرض : فاذا حدث أن اشتعلت هذه الغازات ، وهو ما يدل على اضطراب عظيم فى طبقات الجو ، فان ذلك يعقبه ثورة كبيرة . . . فيرد الآخرون بأن ذلك استدلال الفلسفة القديمة ، أما نحن فنعرف اليوم أن هذه المذنبات أجرام سماوية ، وأنه لا خشية على الأرض منها ...

وكان البسطاء يقولون إن المذنبات نذر ، نذر ترسلها السماء لتعلن عن نقمة يستحقها الانسان : عند ظهور المذنبات ، فويل لمن لا يتوب عما اقترف من ذنوب ! فلتذكروا أنه على مر القرون كان يتبع ظهورها دائماً حادث مشئوم ، من قتل ملك ، إلى زلزال أرض ، إلى مجاعة وحروب أو طاعون . ابكوا وادعوا ، فقد بلغ الكفر ذروته ، إن الله يظهر غضبه ، فيرسل علينا نذراً من السماء .

ويرد الآخرون « أنحن قوم لنا كل هذه الأهمية ، حتى تكلف السماء نفسها مشقة إرسال مذنب من أجلنا ؟ » لقد بحثنا طويلا فما وجدنا شيئاً يدعم أسباب وجود هذا الاعتقاد الشائع ، وليس بين براهين العلماء ما يقنعنا ، ولا فى الكتاب المقدس ما يؤيد هذا الاعتقاد الباطل . وبعد ، فما المذنبات ؟ إن هى إلا نجوم رائعات ، حلى السماء ، إنما يوحى بالخوف الليل والعتمة والظلام ، لا النجم ذو الضياء . وحتى لو سلمنا جدلا بأن فى الأمر غازاً : فكيف نستطيع أن ندرك أن فى الغاز نذيراً ؟ كيف يتأتى أن جسما مادياً صرفاً لا عقل له ولا شعور ، يستطيع أن يدل على معنى المستقبل ؟ إن المذنبات تخضع لنظام الطبيعة التى خلقها الله ، والذى لم تعكر انسجامه الخطيئة الأولى ، فهى تخضع له وليست تؤثر فيه .

O vis superstitionis, quantos motus, quantos tempestatis, in illorum animis excitas, quos oppressisti ! إيه يا قوة الخرافة ، كم من اضطراب تبعثين ، وكم من زوابع تثيرين فى نفوس أولئك الذين تستعبدين !

وهنا يتدخل بايل(١) ، محللا الصعوبات تحليلا منظماً . على أى أساس

---

(١) خطاب إلى السيد أ . د . س . الأستاذ فى السوربون يثبت فيه ببراهين عديدة مستمدة من الفلسفة ومن اللاهوت أن المذنبات ليست نذراً لأى سوء ... ١٨٦٢ . أفكار مختلفة أرسلت إلى أستاذ فى السوربون بمناسبة مذنب ظهر فى ديسمبر ١٦٨٠ ... ١٦٨٣ — ملحق لأفكار مختلفة عن المذنبات ... ١٦٩٤ — تكملة الأفكار المختلفة ، ١٧٠٥ .

من فضلكم يستند الاعتقاد بأن المذنبات نذر أو أنها سبب الويلات الشديدة ؟ أعلى روايات الشعراء محترفى الكذب والاختلاق ؟ أم على نفوذ المؤرخين مختلقى الأساطير ؟ أم على التكهن والتنجيم أسخف شئ فى الحياة ؟ ليس لهذا الاعتقاد أساس وطيد . وإذا صح أن المذنبات كان يعقبها دائماً عديد من الويلات ، فلا محل للقول بأنها علامات لها أو أسباب « اللهم إلا إذا شئنا أن يسمح لامرأة تقطن فى شارع سانت أونوريه وترى عربة تمر كلما تطلعت من النافذة ، أن تعتقد أنها السبب فى مرور تلك العربات ، أو أن ظهورها فى النافذة يكون نذيراً لكل الحى بأن عربة على وشك المرور . . . »

الواقع — ولا اعتداد إلا بالوقائع الثابتة — أنه لم تحدث ويلات تخالف المعتاد فى إبان السنوات التى تعقب المذنبات ، فكم من ويلات بلا مذنبات ، وكم من مذنبات بلا ويلات . إن عدم التمييز بين علاقة العلة بالمعلول ، والمعية أو الاقتران لمنطق غير سليم . وإن تأكيد المعية بالرغم من الوقائع لمحض افتراء . دعوا المذنبات فى سلام ! فما لها من صلة بالانسان ، وما خالها الناس مشغولة بنا إلا لسبب الحماقة والكسل والبطلان ، وكل أسباب الضلال .

وقد صادق كل مسيحى مستنير على ذلك الاستدلال بغير كبير عناء . ولكن بايل لم ينته بعد ، بل إنه لم ينته أبداً ، فعندما نخاله قد انتهى من إثباته ، نراه يفتح فى كتابه فصلا تلو فصل ، وحينما ينتهى الكتاب يشرع فى كتاب جديد . إننا لا نزال بعد فى البداية .

إنه ينكر الاعتقاد بقدرة المذنبات ، ولو استشهدت بها شعوب بأجمعها ، ولو أيدها ملايين من الناس ، ولو اتخذوها دليلا لاقناع الذين لا يصدقون بوجود الله . وهو ينكر بالمثل التقاليد التى ينسب إليها المصدقون القدرة على الاحتفاظ بحقائق الايمان . « إنى أكرر مرة أخرى أنه وهم محض ، ذلك الادعاء بأن فكرة قد انتقلت من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل لا يمكن أن تكون باطلة كل البطلان » .

واحتدم الجدال . وهنا يبرز بايل أعز برهان لديه ، البرهان الذى يبدو له حديثاً مبتكراً : إن القول بأن المذنبات نذر ويل ، معناه أن الله يأتى بالمعجزات ليؤيد الوثنية فى الدنيا . . . ويتحمس ويشتعل ويبدو فى أوج البلاغة والبيان : لا تجعلوا ضعفكم وجهلكم يلجئانكم إلى فكرة المعجزة كلما وجدتم أنفسكم عاجزين

عن تأويل حدث من الأحداث ! إن العقل لا يستسيغ المعجزة . ولا شئ يليق بعظمة الله وقدرته كالاحتفاظ بالقوانين الشاملة التى سنها بذاته ؛ ولا شئ يمس عظمته كالاعتقاد بأنه يتدخل ليخرق سريانها ؛ ولأى مناسبة ؟ لمناسبة حوادث تافهة بالنسبة لنظام الكون كولادة أو وفاة ملك من الملوك !

« كلما درسنا الانسان أيقنا أن الخيلاء شهوته المتسلطة عليه ، وأنه يصطنع الكبر حتى فى خضم البؤس والكرب . تباً له ! فقد استطاع بما جبل عليه من ضعف وهوان ، أن يقنع نفسه بأنه لا يمكن أن يموت دون أن يزعج الطبيعة جمعاء ، ودون أن يجبر السماء على تجشم نفقات جديدة لانارة موكب جنازته . فيا للخيلاء الباطلة الحمقاء ! لو أن لدينا فكرة صحيحة عن الكون ، لفهمنا سراعاً أن ولادة أمير أو وفاته مسألة من التفاهة بمكان بالنسبة لطبيعة الأشياء حتى إنه لعبث أى عبث أن تتحرك من أجلها السماء . ولكنا نقول مع سنيكا أسمى فلاسفة روما القديمة فكراً ، إن العناية الالهية لا تغفل عنا بل تنزل إلى غايتنا ، وإننا نأخذ نصيبنا منها ، ولكن هدفها يفوق كل ما نتصوره عنها ، وإنه وإن كانت حركات السماء تعود علينا بفوائد جلى ، فلا يعنى هذا أن هذه الأجرام الهائلة تتحرك محبة فى الأرض (١) . »

ثم يواصل بايل كلامه عن الارتضاء الشامل والتقاليد والمعجزات . إن الاعتقاد الذى يجعلنا نرى فى المذنبات نذر ويلات عامة ، خرافة قديمة لأهل الوثنية ، أدخلت على المسيحية واستقرت فيها . والواقع أن كثيراً من أخطاء الوثنية بقى على مر العصور ، وليس بعسير أن نجده الآن فى عادات المسيحيين ومراسيمهم بل فى معتقداتهم .

ولنذهب إلى أبعد من ذلك : إن الله لم يقصد ، حينما انتشل الوثنيين من الظلام ، أن يجعلهم أكثر علماً بالحكمة والفلسفة ، وبأسرار الطبيعة ، وأن يقويهم ضد الاعتقادات الباطلة والأخطاء الشائعة ، فلا يقعون فى وهدتها مرة أخرى . وسواء كان هناك وحى أو لم يكن ، فان أعماق طبيعة البشر تبقى دائما عرضة لأوهام لا تحصر ، واعتقادات باطلة ورذائل وشهوات وأهواء ؛ والمسيحيون

(١) بيير بايل : أفكار مختلفة ... بمناسبة المذنب ... ١٦٨٣ ، باب ٨٣ .
Pierre Bayle, *Pensées diverses ... à l'occasion de la comète ...* 1683.

يقعون فيما يقع فيه غيرهم من فساد واختلال . ولنذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً: فليس بمستبعد ان الدين بدلا من أن يبدد الظلمات قد زادها كثافة وعتمة : « فيما يخص الميول الخرافية التى أوجدها الشيطان فى عقل الانسان ، أقول إن عدو الله هذا وعدو السلام قد واصل الجهاد مستغلا كل ظرف لكى يجعل من الدين — خير ما فى الدنيا — كتلة من الخرافات وشاذ العادات واللغو الفارغ والاجرام ، حتى إنه — وذلك أسوأ ما فى الأمر — دفع الناس مستعيناً بتلك الميول إلى أسخف وأفحش ما يمكن أن يتصوره المرء من وثنية(١) . »

ولعل الوثنية من صفات كثير من الأديان ، وإنه لواضح كل الوضوح أنها الصفة الحالية للدين المسيحى . هذا مع العلم بأنه ليس أسوأ من الوثنية شر : حتى الكفر . وإنه ليمكن القول نظريا ، بأن عدم الكمال يخالف طبيعة الله أكثر من عدم الوجود . ويمكننا لكى نبين مدى استنكار الوثنية ، أن نجمع كل ما أصدرته الكنيسة ضدها من أحكام استنكار وتحريم . ولكن الأفضل أن نقدر الوقائع التى هى دائما مرجعنا الأخير . ألا يعطى المسيحيون أسوأ مثل للرذيلة ؟ ألا يلازم الاعتقاد فى الله فساد خلقى مستطير — فى الحياة العملية ؟ وعلى النقيض من ذلك ألا يوجد من الكفار من يسلك سلوكا كله فضيلة ؟ أو ليس لديهم وعى تام بمبادئ الشرف ؟ ألا يعملون على أن يحظى اسمهم بأبدية المجد دون أن يؤمنوا بأبدية الروح ؟ إن المرء ليستطيع أن يتصور مجتمعا من الكفار لا يتساوى مع مجتمع من المسيحيين فحسب ، بل يمتاز عليه . وأخيراً فاذا كانت قيمة فكرة من الأفكار تقدر بما أوحت من أبطال وبما خلقت من شهداء ، أفلا يعلم الناس أن للكفر أبطاله وشهداءه ؟

هكذا يبدأ بايل بالمذنبات البريئة لينتهى بتمجيد الكفر . ولا شك فى أنه وجد من واصل أفكاره ، قوم أرادوا أن يؤثروا مثلما أثر لا فى مجال الفلسفة فحسب ، بل على أرواح البسطاء أيضا : إلا أنه ما من أحد حتى تولاند الذى نقل أفكاره أحيانا — كان له مثل قوته المطلقة العنان . وما من شك أيضا فى أنه وجد عدد أكبر من معارضيه وأخصامه الذين انشغلوا بنقض أفكاره وتفنيدها نقطة بعد أخرى : إلا أن سنين سوف تمر قبل أن يظهر فكر

---

(١) بيير بايل : أفكار مختلفة . . . بمناسبة المذنب ١٦٨٣ ، باب ٦٨ .

قوى يواجه فكره . فى عام ١٧١٢ كتب إيلى بنوا Elie Benoist راعى كنيسة دلفت Delft بهولندا صفحات ضده ، لم تكن دسمة غير أنها لم تنقصها قوة المادة . يقول الراعى : إنه بالمنهج الذى يستعمله بايل فى شأن المذنبات ، المنهج الذى يتطلب كل وضوح وبداهة وينكر كل شهادة ، يمكن القول بأنه ليس هو مؤلف « القاموس » . إن بايل يدعى أنه مؤلفه : ولكن أى دليل يقدمه لنا ليثبت صدقه ؟ — إنه يقسم على ذلك : ولكنى أريد توكيدا ووضوحا ؛ فان هناك يمينا كاذبة — سوف يقدم لنا أصدقاءه ليشهدوا بأنه رجل فاضل شريف : ولكن لا يزال عليه أن يثبت صدق أصدقائه — وسوف يستشهد بالكتبى والطابع والمصحح : ولكنى سأشك فى ذمة الشهود ، ومن شاهد إلى شاهد سوف يتضح أنى قبل أن أصدق مسيو بايل ، لابد من جمعية عمومية من الجنس البشرى بأجمعه . . .

فالواقع أن هناك ظروفا يجب فيها على المرء أن يقنع بالدليل المعنوى ، وعيب منهج بايل أنه يريد أن يشمل الروح بكليتها والحياة بأجمعها . إن الدليل المعنوى على ما فيه من غموض وظلال ، يتيح للمرء أن يختار وأن يرفض وأن يعمل وأن يريد . « إن الأدلة القاطعة من الندرة والتعذر بحيث لا تغنى ولا تفيد فى الأمور التى تحتم فيها ضرورة الحياة ضرورة العمل ، و إنه إذا ادعينا أنه لابد لنا — لكى نختار — من براهين تتغلب على كل اعتراض يثيره فيلسوف حاذق حصيف ، فعندئذ ينبغى أن نطرح كل مهام الحياة . فالفنون والعلوم والقوانين والتجارة لاأساس لها إلا الأدلة المعنوية » . وعليها يستند الدين . . . (١) .

ويومئذ نسى الناس المذنبات ، وأخذ المؤمنون بكنيسة دلفت ، ووراءهم العالم كله ، يفاضلون بين المذهب العقلى (٢) rationalisme ومذهب الذرائع pragmatisme .

---

(١) ملاحظات انتقادية تاريخيه فلسفية لاهوتية على مقالين لمسيو تولاند M. Toland أولها «الانسان بلا خرافة» وثانيهما « أصول اليهود » *Les Origines judaïques* لايلى بنوا Élie Benoist راعى كنيسة دلفت ، دلفت ١٧١٢ ، Delft, 1712

(٢) المذهب العقلى : مذهب لا يعترف إلا بسلطان العقل وينكر الوحى ، والبراجماتزم أو فلسفة الذرائع مذهب يقول إن أساس الحق هو الفائدة العملية .

[الترجمان]

***

أولئكن « السيبلات » Sibylle أو العرافات الجميلات اللواتى رسمهن ميشيل أنجلو فى كنيسة الفاتيكان ، نساء تلقين الوحى من لدن الله ، فقد تنبأن — بالرغم من وثنيتهن — بمجئ السيد المسيح وحياته ومعجزاته وموته وبعثه . وقد استغل آباء الكنيسة أقوالهن على أنها هواتف إلهية لهداية غير المؤمنين : فان الوثنيين كانوا يضطرون إلى الاعتراف بقداسة الدين المسيحى وصحته ، حينما كانوا يرون فى الكتب التى تتضمن أقوال العرافات ، أن أسرار هذا الدين قد بينت للناس قبل ظهوره . عشر عرافات شهيرات ؛ وثمانية كتب لاتينية ويونانية وشهادة المؤلفين العظماء ، فرجيل Virgile ، وتاسيت Tacite وسويتون Suétone ؛ سلطان الآباء ، القديس الشهير جوستان ، والقديس أوغسطين ، والقديس جيروم : أى كتلة قوية ! أى حصن ضد الارتياب ! ولا يغربن عن البال أن هذه التنبؤات لم تحدث إلا إلى غاية ولادة المسيح وأنها توقفت يومئذ إذ أصبحت وليس فيها نفع ولا غناء : وكان هذا السكوت الاعجازى برهانا جديداً على صفتها الالهية .

على أن بعض المتضلعين من العلم لم يؤمنوا بذلك بسهولة . هل كتب العرافات هذه صحيحة ؟ ألا يحتمل أن تكون من صنع اليهود المؤمنين بالمسيح (١) ؟ أو لعلها من صنع المسيحيين ؟ إنها تبدو كمجموعة يونانية فجة غير منسقة . وأما فيما يتعلق

---

(١) كان اليهود دائما فى انتظار مسيح ينقذ الشعب الاسرائيلى من ظلم روما ويعيد إليه عظمته القديمة . وكانوا ينشرون فى هذا الغرض كتبا تحت عناوين كاذبة مثل كتب هنوك وجوديت وعزرا - يصفون فيها مجيء المسيح المخلص . وكان يهود «الناصرة» حيث ولد عيسى ، أول من آمن به وبرسالته . لكنهم كانوا يرونه رسولا قد بعث : لا لتبديل الدين اليهودى ، بل لتتويجه بمجيء المسيح المخلص . وأولئك اليهود المؤمنون بالمسيح يختلفون عن مسيحيى اليونان واللاتين فى أنهم ظلوا متمسكين بكل عاداتهم اليهودية مثل : تحتيم الختان والوضوء والاحتفال بيوم السبت ، وهو اليوم السابع ويسمونه «سابا» ، وقراءة العهد القديم بالعبرية . وكانوا يكرهون تلك الفكرة الخرافية : الرجل الاله . (رينان : تاريخ أصول المسيحية ؛ الكتاب الخامس ، الفصل الثالث ؛ وتاريخ الشعب الاسرائيلى ، الكتاب الخامس) . E. Renan, *Origines du Christianisme* et *Histoire du peuple d'Israël* .

[المترجمان]

بآباء الكنيسة فان علمهم وإخلاصهم لايعصمهم من الوقوع فى الخطأ ، فقد كان يعوزهم روح النقد ، وكانوا مغرضين فقد أخذوا على محمل الصدق أقوالا ظاهرة البطلان . لقد انخدعوا ، ثم خدعوا قراءهم بدورهم وإن حسنت النيات .

لقد نسب العالم فوسيوس Vossius قسيس قصر وندسور ، تلك الكتب إلى اليهود ، دون مراعاة لقداسة عرافات دلفوس Delphes أو قيوم Cumes أو الدردنيل Héllespontique أو غيرهن la Phrygienne, la Tibutine ؛ بينما نسبها يوحنا ماركوس Johannes Marckius العالم اللاهوتى بجامعة جرونج إلى الرعيل الأول من المسيحيين . ثم ظهر طبيب هولاندى يدعى أنطون فان ديل Van Dale يتميز بالقوة وغزارة المعلومات ، فوجه ضربتين قاضيتين : أولاهما أن هذه الهواتف الالهية لم تكن إلا دجلا ، والثانية أنها لم تتوقف بعد مجئ المسيح .

ثم جاء فرنسى أديب حصيف ، أحد أولئك الذين يحسنون الجدال بكلمة قاطعة ، ولم يكن أحد من صفه يستطيع أن يتقدم عليه مهما طال الجدال . أى رمز لتطور الأفكار فى شخص فونتنل Fontenelle ! لم تجتذبه موضوعات البطولة - وإن يكن ابن أخى كورنيل Corneille العظيم - بل كان يعد دعوى « الجليل » طنطنة . لقد عرف التكلف : كان يهوى الأشعار الموجزة ، والقصائد الرقيقة ، وأناشيد الغزل ، ويستطيع أن يجد مائة ناحية من نواحى الجمال فى شعرة بيضاء تتخلل الشعر الفاحم لغادة حسناء .

واشترك فى مجلة « ميركور » Mercure (١) . وألف الكوميديات والتراجيديات والأوبرات . وكان يرى أن الاشتغال بالأدب يعنى صياغة قوالب محدودة جامدة ، طبقا لمبادئ ثابتة : وقد ظهر له هذا العمل ، حسبما رسم ، مسليا ممتعا . وقد احتفظ من تلك الأذواق بشئ أكثر من الذكرى ، بل ظل طوال حياته قريب الشبه — إلى حد ما — بسيدياس Cydias (٢) الذى وصفه لابرويير La Bruyère فى قسوة .

---

(١) ميركور *Mercure* : مجلة أسبوعية أسست فى ١٦٧٢ لنشر أخبار البلاط والأشعار القصيرة والقصص ، واسمها مأخوذ من ميركور ابن زيوس رب الأرباب ، وميركور (هرمس) رسول الآلهة أيضا فضلا عن كونه إله البلاغة والفصاحة والتجارة ، فى الميثولوجيا اليونانية . [المترجمان]

(٢) سيدياس Cydias : مثال الرجل المشهور فى الأدب لفرنسى باسم Bel-esprit =

بيد أن فونتنل كان طلعة بفطرته ، بل تواقا إلى الوصول إلى معارف صحيحة ثابتة : معارف رياضية إذا أمكن . لا تسلية ولا متعة ولا لذة تعدل عنده التحليل والاستنباط ، وإعمال الذهن الذى يقشع الظلال رويدا رويدا . وكان عقله قريباً جداً من أصل جوهره الصافى ، وإنه لعقل جدير بالاعجاب ، يدرك على الفور ويدرك كل شئ ، لا تفسده صورة أيا كانت ولا يفتنه شعور أيا كان ، وحينما تراه إبان العمل ، يخيل إلينا أننا أمام آلة تشريح لامعة حادة النضال . زد على ذلك روح التبشير التى لم يخل منها فى ذلك الوقت أحد، إذ لم يكن أحد قد سئم بعد . وصحيح أنه كان أنانياً وأنه اجتنب كل شهوة وكل انفعال ، وأنه لم يحب النساء إلا من قبيل حب الذات ، وكان يتوقى البرد والحر والتيار ، ويبتعد عن الطفيليين والثقلاء وعن كل مبعث ضيق وابتذال ، وأنه بفضل « ضعفه » الشديد ، شاهد أصح الناس يدفنون ، وعاش مدة قرن طويل . إلا أنه ليس صحيحاً أنه قبض يده على مافيها من ثروة من الحقائق وادخرها لنفسه . وليس ضربة لازب أن يكون المبشرون والدعاة أهل طنطنة أو سوء تربية بل منهم قوم ذوو رقة وتهذيب ، مثل فونتنل . ولشد ما كان يكره الضلال ، حتى إنه ينسى ما اشتهر عنه من حيطة ، ويقاوم الميل إلى الشك قائلا فى حسرة « إنك تجد الضلال فى كل مكان . . . »

فونتنل هذا هو الذى اقترب من العرافات ونظر إليهن نظرة متحرزة . وقد نشر فى عام ١٦٨٦ مؤلفه «تاريخ الهواتف الالهية» *Histoire des Oracles* وهو لم يتعمق ويتوغل ليبحث عن معلوماته ، بل قنع بمؤلفات «فان ديل» Van Dale ولعله كان اكتفى بترجمة كتابه لولمس فيه القوة والوثوق . ولكن فان ديل يكتب فى أسلوب جاف ثقيل ، حافل بالوثائق زاخر بالتعليق ، يثبط همة

= أى مدعى العقل والذكاء . وصفه لابرويير فى كتابه «الشخصيات» *Les Caractères* وهو حسب وصفلا برويير يعتقد أنه رجل نسيج وحده ، حلو الحديث فريد الشمائل لا يقول ما يقوله الآخرون ولا يفتح فمه إلا لينقد رفاقه : « يخيل إلى أن الأمر عكس ما قلتم ... لا أستطيع أن أشارككم رأيكم ... يجب أن نلاحظ ثلاثة أسباب ... » ثم يضيف سببا رابعا . يبادر أول ما يدخل مجتمعا إلى البحث عن حسناء ليسحرها بحديثه الفاتن وذهنه الرائع وسفسطته . وينتظر دائما انتهاء الحديث ليدلى بالرأى الأخير . يظن نفسه فوق أفلاطون وسنيكا وفرجيل . ثقته بنفسه لا تحدها حدود . (لابرويير ـ الشخصيات ، الفصل الرابع ، فى المجتمع والمحادثة) . [المترجمان]

القارئ لأول وهلة : يحسن إذن أن يتناوله فونتنل بالتزيين والتهذيب ، وأن يجمله على الطريقة الفرنسية حتى يصبح فى متناول الجميع . لأن « النساء — ولا أخفى عليكم أن الرجال مثلهن فى هـذا البلد — يتذوقن جمال الأسلوب والتعبير والأفكار ، قدر ما يشعرن بما فى الأبحاث الدقيقة والمناقشات العميقة من جمال جاف . ولا سيما ونحن ، بما جبلنا عليه من كسل ، نريد أن نجد الترتيب والنظام فى الكتاب ، حتى نبذل أقل اعتناء . . . » والخلاصة أن فونتنل قسم العمل : فترك لفان ديل الناحية العلمية ، واحتفظ لنفسه باللباقة والأناقة وجزالة السياق ولذع الأسلوب .

أولا ، ليس صحيحاً أن تلك الأصوات الاعجازية كانت من فعل الآلهة (١) كيف أمكن أن يصدق الناس ذلك ؟ — لان إنتاجا أدبياً بأكمله ، زاخرا بالوقائع المدهشة ، اجتمع على تأييدها ؛ ولأنه كان طبيعياً أن يستغلها الناس ما استطاعوا مادام المسيحيون قد اعترفوا بها ، ولأن الاعتقاد بالآلهة كان يبدو موافقا للفلسفة الأفلاطونية ، زد على ذلك سبباً أقوى من كل الأسباب : تسلط السر المحير على ذهن الانسان .

ولكن كل هذا البناء واهى الأساس : إن الروايات التى يستند عليها هذا التقليد الخرافى غامضة أو متناقضة أو ظاهرة الاختلاق ، حتى إنها لتنهدم وتتداعى فور فحصها بمعرفة العقل . وهكذا يسير فونتنل فى طريقه ضاربا ذات اليمين وذات الشمال ، قائلا : إن العقيدة الشائعة عن أصوات الآلهة لا تتفق مع الدين قدر ما يظن الناس ، وإن وجود الآلهة لم يقم عليه الدليل الكافى فى الفلسفة الأفلاطونية ، وإن مذاهب هامة فى فلسفة الوثنيين لم تعتقد بوجود شئ خارق للطبيعة فى أصوات الآلهة ، وإن كثيرين من غير الفلاسفة لم يلقوا بالا إلى تلك الأصوات ، وإن المسيحيين القدماء أنفسهم لم يعتقدوا كل الاعتقاد

---

(١) أصوات الآلهة أو الهواتف الالهية Oracles : هى فى الأصل - لدى الوثنيين - جواب الآلهة على أسئلة الناس . ففى المعابد والهياكل مثل دلفوس كان الاله يتكلم على لسان عرافة يدعونها بيتى أو سيبل . وكانت هذه الكاهنة الحسناء ، لكى تأتى بالجواب ، تصوم ثلاثة أيام ، ثم تمضغ ورقة غار ، وتقع فى تشنج عصبى هو ولا شك نتيجة عصارة هذا النبات ، ثم تقف على منبر موضوع فوق عين يصاعد منها بخار أو غاز ، ثم يرتعد كل جسمها ، ويقف شعر رأسها ويمتلىء بالزبد شدقها ، وحينئذ تجيب على أسئلة السائلين .
[المترجمان]

فى أن تلك الأصوات من فعل الآلهة . وهكذا كلما وجد فونتنل تأكيداً ، شك وأنكر ، مدليا بالأسباب على الدوام .

والآن ، وقد ثبت أن أصوات الآلهة كانت فاسدة ، وأن الناس ابتدعوها تحقيقاً لهوى ذوى النفوذ ، وأن كهنة الوثنيين استعملوا كل الحيل لفرض تلك الأصوات على عقول العوام ، وأنها كانت غامضة مبهمة فلا وزن لها ولا قيمة ، وأن أساسها الخبث البشرى ولا صلة لها بالآلهة ، ينتقل فونتنل إلى النقطة الثانية : فغير صحيح أن هذه الأصوات قد توقفت بعد مجئ المسيح ، بل إن كثيراً منها حدث بعد ذلك التاريخ . وإذا صح أنها توقفت عن الصدور ، فلأنها كانت تحمل فى ثناياها سبب الفناء ، وهو سبب منطقى مستقل عن النفوذ الالهى : بداهة البطلان . «إن جرائم الكهنة ووقاحتهم ، ومختلف الأحداث التى أظهرت دجلهم فى جلاء ، وخطأ إجابتهم وعدم الوثوق بصحتها ، كانت لابد أن تضيع آخر الأمر أصوات الآلهة ، وتوردها موارد الهلاك ، ولو لم تنته الوثنية » . وجماع القول فى ذلك أنه لا شئ فى كل هذه الرواية خارق للطبيعة ، وهى رواية تقوم على جهل البعض وخداع الآخرين . الخارق للطبيعة : ذلك هو الملاذ المعتاد للانسان ، ملاذ كله خداع وبطلان . نحن فى جرينا وراء العلة نتخطى حقيقة الأمر الواقع ، وهنا مأتى الضلال . والدواء الناجع فى قاعدة ينبغى ألا تغيب أبداً عن العقول : تحقق من الواقع أولا ، قبل أن تشغل نفسك بالعلة .

من ذا الذى لا يعرف حكاية السن الذهبية ، تلك الحكاية اللطيفة الحية الحافلة بالمعانى . فلنعد قراءتها فان قيمتها خالدة ، ولنتخيل ما كان لها فى بدء ظهورها من شهرة وضجة . إن فونتنل يبدو كأنه يتسلى ، بينما هوبلمس أهم مصالح البشر : العلم والتاريخ والدين :

« فى عام ١٥٩٣ سرى خبر مؤداه أن طفلا من سيليزيا عمره سبعة أعوام سقطت أسنانه ، ونبتت محل أحد أضراسه سن من ذهب . وقد كتب هورستيوس Horstius أستاذ الطب فى جامعة هلمستاد Helmstad فى عام ١٥٩٥ قصة هذه السن ، زاعما أن فيها شيئاً من الطبيعة وشيئاً من الاعجاز ، وأنها إنما أرسلت من لدن الله إلى هذا الطفل كسلوة للمسيحيين الذين آذاهم الأتراك . هل

تتصورون وجه السلوة فى ذلك ؟ وأى علاقة لهذه السن بالمسيحيين وبالأتراك؟ وفى نفس السنة كتب رولاندوس Rullandus حكاية هذه السن الذهبية مرة أخرى ، حتى لا ينقصها المؤرخون . وبعد عامين كتب انجولستاتاروس Ingolsteterus — عالم آخر — معارضا رأى رولاندوس فى هذه السن الذهبية ، وعليه أجاب رولاندوس فى رد علمى جميل . ثم يأتى رجل عظيم آخر هو ليبافيوس يجمع كل ما قيل عن هذه السن ، ويضيف إليه رأيه الخاص . وكل ما كان ينقص هذه المؤلفات الرائعة أن تكون السن حقيقة من ذهب . فانه لما جىء بصائغ ليفحصها وجد أن قشرة من ذهب قد ركبت عليها بمهارة . غير أنهم بدأوا بتأليف الكتب أولا ، ثم استشاروا الصائغ بعد ذلك .

« ولا شىء يبدو طبيعيا أكثر من أن يسير الناس على هذا المنوال فى كل الموضوعات . لست أعتقد أن سرد جهلنا إلى عدم إدراكنا علة الموجود من الأشياء ، بل سرده إلى إدراكنا علة ما لا وجود له من الأشياء . ومعنى ذلك أننا لسنا نفتقر إلى المبادىء التى توصلنا إلى اليقين فحسب ، بل إننا فوق ذلك نملك مبادىء أخرى تتمشى مع الباطل كل التمشى .

«لقد أثبت كبار علماء الطبيعة أن الطبقات الواقعة تحت سطح الأرض حارة فى الشتاء ، باردة فى الصيف ، إلا أن علماء أعظم منهم ، اكتشفوا منذ زمن قريب أن هذا لم يكن صحيحاً .

« والمناقشات التاريخية أكثر قابلية لمثل ذلك النوع من الأخطاء . نحن نستدل بناء على أقوال المؤرخين ، ولكن من يدرينا ، هل سلم هؤلاء المؤرخون من الأهواء ، والتصديق الأعمى ، وضعف التعليم ، والاهمال ؟ لا بد لنا من مؤرخ يكون قد شاهد كل شىء ، ولابد أن يتوافر فيه الحياد والاهتمام .

«ولا سيما إذا كتب المرء عن وقائع تتصل بالدين ، فانه لمن الصعوبة بمكان إذا كان ينتمى إلى إحدى الطوائف أو الأحزاب ، ألا ينسب إلى دين غير حق ميزات لا يستحقها ، وأن ينسب إلى دين حق صفات باطلة لا يحتاجها . ومع ذلك ينبغى أن نقتنع أنه من المحال أن نضيف أية حقيقة إلى دين حق ، كما أنه من المحال أن نضفى أية حقيقة على دين باطل . . . »

ولا تبدو البداية إلا هزلا ظريفا ، غير أن النغمة تصبح جداً رويدا رويدا.

إن التفكير العميق تحت هذه المظاهر الخفيفة ، يلتحق بالتفكير الذى عبر عنه بايل فى صدد المذنبات ، حتى إنه لا يعيبك أن تلاحظ القرابة . إنه نفس النداء سوجها إلى جمهور ، أكبر من جماهير الفلاسفة واللاهوتيين ، وفيه نفس الارادة فى اتهام ضعف الطبيعة البشرية ، أهم أسباب الضلال ؛ وعمى التقاليد التى تحتضن الضلال وتدعمه وتجعل منه قوة لا تغلب . تتولد الخرافة : فيصدقها القدماء ويعتمدونها ، ونصدقها بدورنا على علاتها ، استناداً على القدماء . إن الآلية لا تتغير : أقنعوا ستة رجال بأن الشمس لا تضئ النهار ، وفى ذلك الكفاية : فان شعوبا بأكملها يؤول بها الأمر إلى الاقتناع . وفونتنل ، مثل بايل ، يكره السلطة ؛ إن الارتضاء الشامل يبدو له سخافة محضة ، إذا اتخذ دليلا على اليقين : إن قبول مائة شخص أو مائة مليون لأسطورة ، خلال عام أو خلال قرون ، لا يغير منها شيئاً إذ تبقى دائما أسطورة . وهو ، مثل بايل يستنكف المعجزة ، وأخيراً فهو مثل بايل يأبى أن يجد فرقا جوهرياً بين الوثنيين والمسيحيين : فالمسيحية تأبى نسبة حقائقها إلى الوثنيين ، والوثنيون أورثوا المسيحيين أخطاءهم .

ولما كان فونتنل ذا عقل كسول كسكان سيباريس Sybaris (١) وذا حكمة ، ولما كان ميالا إلى المتعة الهادئة خشية أن يستجلب على نفسه نقمة الآلهة ، فانه لا يجادل جدالا شديداً ، ولكنه يجادل على كل حال . وهو يعلم أن فى بولونيا مجمعاً للعلوم يدعى مجمع « القلقين » : والقلقون — لقب يليق « بالفلاسفة المحدثين الذين لا يتقيدون بأى سلطة ، ولذا فهم يبحثون ولن يكفوا عن البحث (٢) » . وفونتنل من طائفة أولئك القلقين . وهو مثل أعضاء طائفته ، يدرك أن عليه رسالة شاقة واجبة الأداء : لأن يرفض المرء اعتقاداً جديداً دون فحص ، أو يتقبل اعتقاداً شائعاً ، هذا سهل لا يستلزم استعمال العقل ، أما أن ينبذ اعتقاداً شائعاً وينضم إلى حزب التجديد ، فذلك

---

(١) سيباريس : مدينة قديمة فى إيطاليا اشتهرت بليونة سكانها الذين ضرب بهم المثل فى الكسل . يحكى أن أحد أهلها كان يتصبب عرقا إذا رأى عبداً يقطع الأشجار . وأن آخر يدعى سيمينيريت اشتكى من أنه ظل طوال الليل ساهرا أرقا ، لأن ورقة من أوراق الورد المفروشة فى سريره كانت قد انثنت ، وذهبت هذه المبالغة مثلا . [المترجمان]

(٢) مدح لمسيو مارسيجلى ... *Eloge de M. Marsigli* .

عسير وهو ما يستحق التقدير : « إنما القوة تلزم فى مقاومة السيل ، أما فى متابعته فليس لها لزوم » . فهو ينكر على المصدقين كل شئ ، ويعطى للمنكرين كل شئ ، كما هو مبين فى هذا القول : « إن شهادة الذين يعتقدون فى ثبوت شئ ، ليس لها من قوة تسنده ، أما شهادة الذين لا يصدقون به فلها قوة تقوضه . ولعل المصدقين لا يعلمون بالأسباب التى تدعو إلى عدم التصديق ، لكنه من المحال أن يجهل غير المصدقين الأسباب التى تدعو إلى التصديق . »

***

وكان الاعتقاد فى السحرة أقدم وأعم وأعمق تشبثا بالعقول . وكان السحرة مخلوقات كريهة مرذولة : يذهبون إلى اجتماعات السبت Sabbat (١) على مطايا غريبة ، ويشركون فى حفلاتهم الشيطان . وعلى ما يقول أحد المعاصرين يؤذون الناس بأعمالهم السحرية فيمنعون الزوج من مجامعة زوجته ، ويفسدون الفتيات الفاضلات بطلسم يلقونه فيما يشربن أو فيما يأكلن ، ويسممون الماشية ، ويتلفون خيرات الأرض ، ويميتون الرجال بالتعذيب البطئ ، ويجهضون الحوامل ، بجانب مئات من السيئات الأخرى . . . وهناك نوع آخر أخطر من هؤلاء : السحرة المجوسيون ، وهم على علاقات ودية مع الشيطان ، يستحضرونه على الصورة التى يرغب أن يراه فيها محبو الاستطلاع . ويعرفون سر الكسب فى المقامرة ، ويضمنون الثراء لمن يبوحون له بهذا السر . يرجمون بالغيب ، ويستطيعون التحور إلى الحيوان بمختلف أنواعه واتخاذ صورة أبشعه ، ويذهبون إلى بعض المنازل حيث يصدرون أصواتاً غريبة تبدو كعواء الذئاب ، وأنات مرعبة تثير الفزع ، ويظهرون وسط نيران تعلو على هام الشجر ، جارين أغلالا فى أقدامهم ، ممسكين بالأفاعى فى أيديهم ، والخلاصة أنهم يثيرون

---

(١) Sabbat : يوم الراحة عند اليهود وهو اليوم السابع أو السبت . وهو حسب اعتقاد شعبى يعنى اجتماع السحرة فى منتصف الليل يوم السبت تحت رئاسة الشيطان . وقد أمر الله اليهود بعدم الصيد فى يوم السبت ابتلاء لهم فتمر الأيام لا يأتيهم السمك وفى يوم السبت المحرم تظهر لهم الحيتان بكثرة تراودهم . قال تعالى «واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون» . [المترجمان]

الرعب فى النـاس حتى يضطروا إلى استدعـاء رجـال الدين لصرفهم .

وإن عددهم لكبير : تجدهم فى أمريكا لدى المتوحشين ، كما تجدهم فى لابلاندة . ولما كان سحرة لابلاندة قد تعاهدوا مع الشيطان ، فانهم يستطيعون إيقاف السفينة فى أثناء سيرها ، وتغيير وجه السماء . يدقون طبلا سحرياً لأمـد طويل ، ثم تستولى عليهم علامات رعب شديد ، ويظلون سجودا على وجوههم دون حراك ، بينما أرواحهم تفارق أجسادهم ، راحلة إلى بعيد . ففى لابلاندة تصادف السحرة أينما سرت وفى كل خطوة .

وبالنا نذهب بعيداً . فقد حدث مثلا فى انجلترا القديمة ، فى تدورث ، أن طرد أحد أصحاب المنازل قارعاً للطبول من منزله : يومئذ عاد هذا الرجل بالسحر ، ليسمع صاحب المنزل دقات تثير الرعب وضجة شيطانية . والواقعة أكيدة . فان قسيساً يدعى جوزيف جلانفيل Glanvill ، حضر إلى المنزل وتفقده من الأساس إلى السقف : ولقد سمع الضجة إلا أنه لم ير أحداً . وأولئك الذين ينكرون تلك الشهادة عن وجود الشيطان وقدرته ، غير مؤمنين ، كفرة ، صدوقيون Saducéens (١) وكان المذهب الصدوقى يسرى فى انجلترا ويفتح الطريق للكفر ، بتشكيكه فى وجود روح أبدى لا متناه ، ولكن الصالحين من القوم ، سوف يعملون على إخماد هذا المذهب ، لأنهم لا يستطيعون أن ينكروا ما سببه شبح تدورث من أذى .

وبلغت مسألة الشيطان من الأهمية مبلغاً ظلت معه تعكر صفو العقول ، مع أنها ليست جديدة بل ترددت مائة مرة . فيأيتها الشيطنة ماذا تغنين ؟ هل أنت لعبة الأرواح الجهنمية ، العفاريت الشريرة المنتشرة فى كل مكان ، والتى تجد متعة فى تعذيب الناس ، وإيقاعهم فى حبائل الاغراء ؟ أم أنت مظاهر متعددة متباينة لقدرة الشيطان على بث الارتياب ، ذلك الشيطان الذى انتقل بالمسيح إلى قمة الجبل حيث أطلعه على كل ممالك الأرض سعياً وراء

---

(١) الصدوقى : اليهودى الغنى من أصل كهنوتى ارستوقراطى محافظ . لا يريد أن يسمع عن اعتقاد جديد ، كالبعث والمسيح والملائكة والتفسير الجديد للقانون . وهو يخالف الفريسى الذى يمثل الديموقراطية ويعتقد بالبعث والمثوبة فى الدار الأخرى ، ويحمل القانون كتلة من التفسيرات التقليدية . (رينان : تاريخ الشعب الاسرائيلى الجزء الخامس ، الفصل الخامس ص ٤٢ ، Renan, *Histoire du peuple d'Israël*) . [المترجمان]

إغرائه ؟ أم أنت لست إلا كابوساً مخيفاً أو وهماً يساور الانسان ؟ أم لست إلا وليدة الخيال الهائم سيد الكذب والبطلان ؟

لم يكن بد إذن من معاودة النضال للمرة الثالثة ، أو على الأصح الاشتباك بشكل حاسم فى عراك يبدو كأنه لا ينتهى ، وإن كان سينتهى . وكان ينبغى التدخل بحمية ونشاط لأن الأمر لا يتعلق باليقين أو بالضلال فحسب بل بمتهمين ومتهمين ، بمحاكم وقضاة وضحايا . وإذا كانت بعض دول أوربا تميل إلى التسامح ، وتمنع رفع الدعوى ضد فقراء تعساء للاشتباه فى اتصالهم بالشيطان ، وهو ما ليس من الاجرام فى شئ ؛ وإذا كان ملك فرنسا قد أصدر فى عام ١٦٧٢ أمراً يمنع المحاكم من قبول الاتهام بالاشتغال بالسحر : فان دولا أخرى ، على النقيض ، قد واصلت المطاردة بكل شدة ضد السحرة والمسوسين والمدعين القدرة على استحضار الموتى ، بارسالهم إلى السجن والتعذيب والمشنقة والحريق .

وهنا ظهر هولندى ، تبعه ألمانى هو بلتازار بيكر Balthasar Bekker ، ثم أقواهم كريستيان توماسيوس Christian Tomasius ، وقد تجسد فيهم مجهود العقليين الظافر . وبلتازار بيكر هذا سيماؤه ليس لها نظير : لقد كنت ترى بنيقته البيضاء يبرز منها ذقنه المربع الكبير ، وفمه العريض ، وأنفه الضخم الطويل ، وعيناه البراقتان ، يظللهما حاجبان كثان ؛ ولم تكن شخصيته أقل تفرداً . وكان هذا الراعى البروتستانتى — شاء أو أبى — متأثراً بديكارت الذى علمه التفكير الواضح المستقيم . وقد علمته إحدى المغامرات التقزز من حكم الآخرين : ففى أثناء قيامه بأعباء وظيفته فى فريز ، ألف كتيباً عن عقائد المسيحية ، حرمته جمعية مكونة من أكثر من مائتى قسيس ، دون أن يوجد بينهم قسيس واحد — على ما يزعم — يستطيع أن يبرر هذا الحكم . وقد قوبل هذا الكتاب ، فيما بعد ، بالتأييد مرتين مع أنه لم يجر فى مبادئه أى تعديل . كيف لا نستنبط بعد ذلك ، أن مسيحياً صحيحاً ، ولا سيما إذا كان عالماً ، ينبغى أن يعد حكم الآخرين باطلا كأنه لم يكن ، وألا يستوحى قواعد الايمان إلا من نفسه ؟ وعلى ذلك قرر بيكر أنه لن يكون له فيما بعد إلا رسالة واحدة بجانب الاهتمام برعيته : وهى القضاء على الأخطاء وكشف القناع عن الأكاذيب . لن يتبع خطوات أحد ، ولن يستمع لنصائح أحد حتى العلماء ، الذين سرعان ما ينحنون أمام الشهرة المكتسبة ، والذين لا تنقصهم المعتقدات الباطلة . سيجاهد لجعل الناس أكثر

حكمة ، مع أن حقيقة الأمر أن من يريدون منهم إصلاح عقولهم قلة : إنه ليسير مريح أن يؤمن المرء ويتصرف كما يفعل الناس قاطبة ، وأن يردد اعتقاداً يرويه الناس فى كل آونة ! ما أيسر اتباع الجماهير ! وما أصعب التمحيص . إن بلتازار بيكر مثل تولاند قد تسمم بالعقل . إلا أنه كان على الأقل باسلا مخلصا نشيطاً ، فى عقله تلك الحمية المشتعلة التى لا غنى عنها فى حروب العقل المقدسة .

وقد ارتحل لملاقاة الاعتقادات الباطلة ، فلم يجد عناء فى مصادفة الكثير منها . وهو أيضاً يبتدئ بتبرئة المذنبات : ولكن الشيطان يستأثر باهتمامه ، ويحتل مخيلته ويشغل كل عظاته ، إلى أن يتخلص منه ذات يوم فى كتاب كبير ينشره فى عام ١٦٩١ : *De betooverte Wereld* « العالم المفتون » . سوف يخلص العالم من الافتتان . . .

وهو يبتدئ فى أسلوب حى مؤثر . إن الاعتقاد فى الشيطان وفى قدرته ، وفى خدام الشيطان وإجرامهم ، ليس له أمام النور الفطرى صمود . فلنصل إلى منشأ هذا الاعتقاد ، ولنتبع مسراه على مر العصور ، وفى كل البلاد ، عندئذ سوف نرى أن مصدره وثنى ، وأنه أفسد المسيحية ؛ ومع أن البروتستانت ، منذ انفصالهم عن كنيسة روما ، قد تخلصوا منه إلى حد ، فانه لم يكف عن خداعهم بعد . لا تقولوا إنه يستند على الكتاب المقدس : لعله يستند على تفسير آباء الكنيسة له ، ولكنه لا يستند على تفسير منطقى ، مثل تفسيره هو ، بلتازار بيكر . فمثلا : يتكلم الكتاب المقدس عن الملائكة ، ولما كان لا يذكر شيئاً عن طبيعتها أو ماهيتها ، فيمكن القول بأنه يشير إلى أشخاص كلفهم الله برسالة خاصة ، ولذا أمدهم بقدرة خاصة . وهو أيضاً يتكلم عن أرواح شريرة ، ولكنه هنا أيضا يشير إلى أشخاص ، أشخاص أشرار مفسدين . وهو يذكر ما وقع لآدم من إغراء ، ولكن قصة موسى لا تذكر شيئاً يستدل منه على أن الشيطان نفسه يستطيع أن يؤثر مباشرة على الأرواح والأجساد . كما يذكر الكتاب المقدس إغراء السيد المسيح ، لكنه لم يذكر أن الشيطان لم يكن رجلا شريراً فاسداً . وهو يذكر أن المسيح كان يشفى المسوسين ، ولكن الناس اعتادوا أن ينسبوا أخطر الأمراض إلى فعل الشياطين ، فضلا عن تسميتهم الأمراض نفسها بالشياطين . إن المسيح لم يغير أساليب الكلام التى كانت فى أيامه ، حتى إن شفاء المس المزعوم daemonia لم يكن على

التحقيق طرداً للشياطين ، بل شفاء لأمراض جد حقيقية . وجملة القول فى ذلك « أن تفسير الكتاب المقدس تفسيراً عميقاً خاليا من التغرض ، لا ينسب إلى الشيطان كل تلك القدرة وتلك الأفعال ، التى ينسبها إليه تغرض الشراح والمفسرين . . . » واليوم نرى السحرة قوما أشرارا جداً ، عقيدتهم وأخلاقهم فاسدة كل الفساد ، ولا علاقة لهم ألبتة بالشيطان .

وقد حكمت الكنيسة على بلتازار بيكر بالحرمان ، ومات بيكر على رأيه . وقد عنى بترجمة كتابه إلى الفرنسية تحت إشرافه حتى يتفادى التراجم المزورة التى تتعرض لها دائما المؤلفات التى تلاقى النجاح . ولم يكن هذا التحوط عبثا ، فقد لقيت الترجمة الفرنسية للكتاب أوسع رواج . وقد ترجم أيضا إلى الانجليزية والألمانية ، وقرأته أوربا بأجمعها .

إلا أن ألمانيا كانت أكثر البلاد مطاردة للسحرة وأخذا لهم بالعنف والشدة . فلم يمض وقت طويل على وفاة رجل قانون شهير ، كان أحد أولئك الرجال ذوى المكانة والخطر الذين يستوثقون من القبض على ناصية الحقيقة وتملك زمام العدالة ، والذين يدينون إخوانهم متى رأوا صالحهم فى ذلك : يقال إن هذا الرجل « بنوا كار بزو » Benoît Carpzow زعم أنه قرأ العهد القديم من الألف إلى الياء ثلاثا وخمسين مرة ، وأنه كان يذهب إلى الكنيسة ليتناول القربان مرة على الأقل فى كل شهر ، وأنه كرس حياته لتقوية إجراءات القانون ، وتشديد العقوبات على السحرة : حتى أدان أو تسبب فى إدانة بضعة آلاف منهم . ومع ذلك ، فبعد مرور جيل كان على ألمانيا نفسها أن تقدم أقدر الرجال على محاربة هذه البربرية وهو كرستيان توماسيوس : وكان تطور أفكاره علامة من علامات الزمن .

لقد ولد فى ليبزج فى عام ١٦٥٥ ، حيث نشأ بين مبادئ قويمة تليق بابن أستاذ كبير . وتعلم التفكير طبقا لمنهج أرسطو ، والايمان على يد القساوسة حراس الأرثوذكسية الأشداء . ولما أتم دراسته فى العشرين من عمره وذهب إلى فرانكفورت لكى يكون معلما هناك بدوره ، كان يدرك تمام الادراك واجبه فى الدفاع عن السلطة والاحتفاظ بالتقاليد ، التى لا تترك مجالا للحرية فى إعمال الفكر ولا للتسامح فى أداء الفروض اليومية .

ولكن حدث فى عام ١٦٧٥ ، أن قرأ مؤلفات بوفندورف Pufendorf ، الذى أخرج العلوم القانونية من نطاق الدين بتمييزه بين الحق الطبيعى والحق

الالهى : فكان ذلك وحيا لتوماسيوس . إن نظرية الحق الطبيعى التى حار بها حتى ذاك الوقت دون أن يعرفها جيداً ، أصبحت منذئذ دستوراً له ، فوصل فى بحثه إلى المبادئ التى أوحت بهذه النظرية ، وانقلب من دجماطيقى متعصب إلى متحرر ثائر . «لا عقيدة تكتسب اكتسابا أعمى بعد اليوم ، عندما أمحص نظرية فلا تقدير عندى لشهرتها ولا لمقام من يؤيدها ، بل سيكون تقديرى الوحيد لما فيها من وضوح ؛ سأدرس ما لها وما عليها من براهين ، وسأتخذ قرارى طبقا لما تهديني إليه معارفى الذاتية . وبدلا من أن أظل عبداً مطيعاً لطغاة الفكر سأغدو مثل أولئك الأبطال القدماء الذين انتضوا السلاح ضد الطاغية الذى كانوا فى خدمته ، فى سبيل انتصار الحرية . . .»

وكان مفطوراً على الخشونة والعنف ، مشغوفا بالمعارك الحامية ، والمناقشات المحتدمة والمجادلات الحية ، ومحبا للنداء الذى يتعالى من منابر الجامعة ليرن فى أحياء المدينة . وكان يجد لذة فى استعمال حيل الحرب التى تدحر العدو الواثق بقدرته ، وتوقع العظمة « الروتينية » فى الخور والارتباك ، بالاستهزاء وبالسخرية وبالهجاء ، ولم يكن يأنف تلك السمعة السيئة التى تدفع الناس إلى أن يقولوا فى أثناء مروره : هذا هو كرستيان توماسيوس الذى لا يخاف شيئا ولا يهاب . ولما رجع إلى ليبزج فى عام ١٦٨٠ بصفته Privat-docent (١) قام بدور رائع خلاب ، إذ سرعان ما اتخذ تعليمه مظهر ابتكار مثير للخواطر . كان يقول إن الميتافزيقا لغو فارغ ، وإنه ينبغى ترك اللاهوت للاهوتيين ، وإنه لا حساب إلا لعلمين اثنين : المنطق والتاريخ . لأن الأول يعلم التفكير المستقيم ، ولأن الثانى يعطى المثل المفيد ، سواء بالاجتناب أو بالاقتداء ؛ وإن المعرفة ينبغى أن تكون وسيلة للمنفعة العملية ، الواقعية ، المباشرة ؛ وإن القانون يجب أن يكون اجتماعيا . وكان يحارب المعتقدات الباطلة مصدر كل بلاء ، فمنشؤها تلقين الأطفال والشباب كل أنواع الضلال التى تدعو إلى الرثاء ، دون تقدير لعقولهم ؛ فضلا عن خفة الناس وتسرعهم فى تقبل كل ما يقدم لهم للايمان به . وأخيراً فانه كان دائب التكرار لنظرياته القيمة :

---

(١) Privant-docet : أستاذ حر فى جامعات ألمانيا ، يتناول أجره من تلامذته . [المترجمان]

إن النور الفطرى شئ والوحى شئ آخر ، وإن اللاهوت من دائرة الكتاب المقدس ، أما الفلسفة فمن دائرة العقل ، وإن اللاهوت يتناول سلام الناس فى السماء ، أما الفلسفة فتتناول سلامهم فى الأرض ، وهو الأمر الأولى .

وضاق أساتذة الجامعات ذرعا بتلك الأقوال الجريئة : قالوا إن توماسيوس يفسد عقول الشباب ، ويدفعهم إلى الكفر . وتبادلوا وإياه الهجوم والرد والكر والفر . وكان يبدو فى حلة الأستاذية ، يكسوه شعر مستعار فضفاض ينسدل على عاتقيه ، كأنه برج ضخم قوى لا تزعزعه الضربات . كل ما وجه إليه من مقالات ورسائل قدح ، وكتب تهديد ، واستدعاء أمام المجالس الجامعية ، وإيقاف عن التدريس ، كل ذلك كان يلهب حماسته . وكان له من حين إلى حين ابتكارات عبقرية فذة ؛ كما حدث ذات يوم ، وهو يوم ظل مشهوراً فى تاريخ الجامعات الألمانية ، يوم نشر برنامج دروسه لا باللغة اللاتينية بل باللغة الدارجة . ويا له من شخصية عجيبة ! فقد أراد أن يؤثر على التلامذة حتى يجعل منهم لا محامين وقضاة فحسب ، بل رجالا مفكرين أيضا ، فاعتزم أن يدرس ذلك النموذج البشرى الذى قدمه بلتازار جراسيان Baltasar Gracian ، إلى العالم : البطل *le héros* . وإذا به يقع على نموذج بشرى آخر ، هو الرجل الفاضل *l'honnête homme* ، وعلى المدنية الفرنسية ، سيدة الانسانية : إذ كان يسأل فى درسه الافتتاحى ، إلى أى مدى يجب أن يقلد الألمان الفرنسيين ؟ حسن أن ندرس مؤلفاتهم ، ما فى ذلك من شك ؛ وأن نطالع كتبهم المشهورة « كالمنطق (١) لجامعة بور — رويال » ، *La Logique de Port-Royal* وأن نعرف لغتهم التى تحتوى على كثير من النماذج الرقيقة للسيكولوجية . أما أن نقلدهم كالمزورين أو القرود فهذا ما لا يجوز ! إن الفرنسيين يفوقوننا علما وذوقا وتربية : أجدر بنا أن نعمل على منافستهم ، بدلا من أن نقتفى أثرهم فى حطة . فلنتقدم ، ولنخجل لأن هؤلاء المزهوين يضعوننا فى صف واحد مع أولئك البرابرة الروس ، ولنثبت لهم مدى اقتدار الألمان ، إن المستقبل فى أيدينا .

---

(١) المنطق *La Logique* أو فن التفكير : تأليف أرنو ونيكول Arnaud et Nicole فى أربعة أجزاء ، ١٦٦٢ . [المترجمان]

وكان يضحك فى خضم المعمعة ، لأن الخلق المرح — كما يقول جراسيان — ليس عيبا بل كمالا إذا هو بعد عن المغالاة : فشئ من الفكاهة كشئ من التوابل فى الطعام . وأضفى على الراسيو نالزم — أى المذهب العقلى — كثيرا من الفكاهة ، بنشره فى عام ١٦٨٨ صحيفة على مزاجه : أقضت مضاجع أصحاب المذاهب . صحيفة لا تصدر باللاتينية مثل *Acta eruditorum* فخر ليبزج ، بل بالألمانية . صحيفة تجمع بين الهزل والجد ، بين الخفة والرزانة ، تتعرض للكتب الجادة والكتب الفكهة سواء ، صحيفة تزكيها ذكرى أستاذ كان يجمع هو الآخر بين رجاحة العقل والميل إلى السخرية : إرازم Erasme (١).

ظل يجادل حتى عام ١٦٩٣ ، حيث اضطر إلى مغادرة ليبزج : ولابد فى حياة هؤلاء المعارضين من هذه العراقيل . فرحل إلى برلين . وكان ذلك فى الوقت الذى اعتزم فيه فردريك الثالث تحويل مجمع النبلاء فى هال إلى جامعة ، سنراها فيما بعد مركزاً كبيراً للنشاط الفكرى . ووجد كرستيان توماسيوس فيها مستقراً له ، بل أصبح رجل المؤسسة ، وخالقها الحقيقى وموجهها . وهنالك انشغل فى البحث عن الشيطان .

ولشد ما كان نشاطه ! ولكم جمع من البراهين ، متخذاً بعضها من بيكر ومخترعا البعض الآخر ! لا الوقائع ولا التفسير الصحيح للكتاب المقدس ، ولا المنطق ولا العقل نفسه ، تسمح بترك خرافة مثل هذه باقية : ظهور الشيطان لرجل فى صورة حيوانية أو بشرية ، ثم عقد ميثاق بينهما ، يستبدل فيها الساحر بروحه ، قدرة شريرة يؤثر بها على الأشياء والناس . وإنك لترى توماسيوس أحيانا يحتال : فهذه الصورة السخيفة ، مأتاها الكتب ، كتب الدين . هناك رأى الكاثوليك الشيطان منذ الصغر فى صورة وحش بشع ، ورآه اللوثريون فى صورة راهب ، قلنسوته ذات ظلف مشقوق ، وقرونه نافذة من قلنسوته . وتراه حيناً يغضب ويجتد : كان المنتظر أن يتخلص الاصلاحيون البروتستانت من هذه العقيدة السخيفة ، بعد ما فعله لوثر ، وبعد تكذيب

(١) إرازم . عالم وفيلسوف وأديب هولندى ، ولد فى روتردام فى ١٤٦٧ ، مؤلف المحاورات الشهيرة *Colloques* ومدح الجنون *L'Éloge de la Folie* : وهو أعلم أدباء النهضة فى العلوم الانسانية اشتهر فيما بعد بفضل أسلوبه وفكره بلقب «فولتير اللاتينى» ومات فى بال ١٥٣٦ . [المترجمان]

كل تلك الخرافات الرومانية والبابوية ، بيد أننا نجدها لا تزال فى اعتقاد العوام قائمة حية ، بل إنها بين البروتستانت ولاسيما اللوثريين سارية ، قوية . فيا للمشيئة ! ولكن ليس الفيلسوف الذى يتكلم فحسب ، بل يتكلم أيضاً أستاذ القانون ، المحامى الذى دافع عن السحرة فى القضايا الجنائية . ففى ساكس قوانين ، بل قوانين حديثة ، تعلن أن كل شخص يعقد ميثاقا مع الشيطان دون مراعاة المسيحية ، يحكم عليه بالموت حرقاً ولو لم يسبب لأحد ضرراً . آه . . . ! فليحذر القضاة واللاهوتيون الألمان ، بفضل تقدم الفلسفة الديكارتية ، وبفضل تقدم المنطق ، الوقوع فى خطأ يقود إلى الجريمة ! ولعل أكثر ملاحظات توماسيوس ابتكاراً ، تدخّله العملى فى هذا السبيل : فانه يقوم بالدفاع هنا ، فى ميدان الواقع الملموس ، عن العدل والانسانية .

وفى عام ١٧٠٩ ، وجد متعة فى أن يرفض كرسيا عرضته عليه جامعة ليبزج — التى تعض بنان الندم . ولقد استقر فى هال ، وفى هال قضى السنوات الأخيرة من حياة طويلة ، وفى هال توفى عام ١٧٢٨ : الرائد المجيد لحركة التفسير الألمانية Aufklarüng ، بطل المعركة الكبرى فى سبيل النور .

***

ليس ضربة لازب أن ننقب فى أعماق الضمائر لكى نجد الخرافة ، المستعدة دائما للطفو على السطح . إن المركيزة برانفلييه La Brinvilliers والعرافة فوازان la Voisin (١) لم تكونا محترفتى تسميم فحسب ، بل عدتا أيضا ساحرتين . وفى عام ١٦٨٠ قبض على الماريشال دى لوكسمبرج — من أكبر شخصيات فرنسا — وسجن : بتهمة عقد اتفاق مع الشيطان . ولم ينقطع الحديث عن المسوسين فى لودون Loudun — وهى قصة قديمة — ولا عما يشبهها من أقاصيص . وفى عام ١٦٩٢ كشف المنجم جالك إيمار عن القتلة بعصاه السحرية . وأصبح شهيراً يهدد بها سرتكبى الشرور واللصوص . وأخذ يستغل شخصيته ، فيقع فى تشنج عصبى شديد : وانهالت عليه الطلبات ، وأصبح موضع الفضول . ولم

(١) المركيزة برانفلييه : مارى مادلين دى برانفلير ، محترفة التسميم الشهيرة أعدمت وأحرقت فى ميدان جريف ١٦٧٦ ، ولافوزان : عرافة ومحترفة تسميم اشتركت فى حادثة التسميم المشهورة ١٦٧٢ وأحرقت حية فى باريس عام ١٦٨٠ . [المترجمان]

يكن فى ذلك الوحيد ، فانك تسمع عن أعمال مشابهة فى تونوز ودفينى Dauphiné وبيكاردى والفلاندر ؛ فرجال الدين ، والأطفال والنساء يستخبرون المنجمين عن وجود الذهب والماء . وهل حدث ذلك فى فرنسا وحدها ؟ كلا ، فقد حدث المثل فى ألمانيا حيث يستعملون العصا السحرية فى جبر العظام ، وأسو الجراح ، وإيقاف النزيف ؛ وفى بوهيميا أيضاً والسويد والمجر وإيطاليا وأسبانيا : « زاهوريس Zahuris هكذا كان الناس فى أسبانيا يسمون أشخاصا معينين ، يزعمون القدرة على رؤية ما تحت الأرض من عروق الماء والمعادن والكنوز والجثث ، بما لهم من بصر خارق . ولهم عيون شديدة الاحمرار . . . (١) » وفى مصر كانت هذه العصا السحرية « تصرف الماء من بطون الحيوانات المنتفخة » . وفى هذه الروايات كثير من الاختلاق . ولكن بما أنه فى بعض الأحيان لا مجال للشك فى أن هذه العصا تتحرك من تلقاء نفسها ، إذ لا سبيل إلى الاشتباه فى صدق من يمسكها ، فقد نسبت هذه الحركات الاعجازية إلى فعل الشيطان . — كل هذا ولم نتعرض بعد لأنواع السحرة كافة ، ومستحضرى الأرواح والعرافات وقارئى الطالع . . .

ولكن يظهر للعقل السليم le bon sens رد فعل فى كل مكان . فاذا سألت عن الكتب التى ظهرت فى صف جاك إيمار أو ضده ، فاعلم أنها لاتختلف فى كثير أو قليل عن حكاية السن الذهبية : « فبعد نشر كتاب أو كتابين صغيرين عن هذا الموضوع ، ألف فالمون Vallemont كتابا ثالثا فى ستمائة صفحة ، ليشرح حركة العصا السحرية على أساس الميكانيكا . ثم ناقضه م . ب من مجمع الأوراتوار ، مثبتا أن العصا لا يمكن أن تدور دون تدخل الشيطان. وأخيراً بعد هذه الكتب الطلية ، ثبت أن جاك إيمار كان مشعوذا وطرد ... وأكثر ما يسر الفيلسوف فى هذه الحكاية هو أن فالمون يؤكد فى بداية كتابه أن قصة السن الذهبية التى سردها فان ديل قد جعلته حكيما ، وأنه لم يتناول المعجزة بالتفسير قبل أن يتحقق من صحتها ! » هكذا يسخر ديبو Dubos فى رسالته إلى بايل فى ٢٧ إبريل ١٦٩٦ . أما بروسيت Brossette الذى شاهد الرجل الاعجازى بعينيه ، والذى لا يزال متأثراً به حينما يقضى بما فى قلبه

---

(١) بيير بايل : القاموس ، باب زاهوريس .

لصديقه الحميم بوالو ، فيبدو على وشك التصديق « ليون — ٢٥ سبتمبر ١٧٠٦ — رأيت بالأمس رجلا أوتى صفات أو على الأصح مواهب طبيعية ليس من السهل تفسيرها . إنه جاك إيمار الشهير أو الرجل ذو العصا السحرية . وهو ريفى من سان مرسلان فى دوفينى على بعد ١٤ مرحلة من ليون . وقد اعتاد الناس استدعاءه إلى تلك المدينة للقيام ببعض الاكتشافات . وقد قال لى أشياء مذهلة عن قدرته فى التنجيم ، من المنابع والحدود المنقولة والنقود المخبأة والأشياء المفقودة والقتلة والسفاكين . وشرح لى الآلام الشديدة والتشنجات العصبية التى يعانيها حينما يصل إلى مكان الجريمة أو يقترب من المجرمين . قال إنه يشعر فى قلبه بمثل حرارة الحمى ، ثم يتقيأ دما ثم يقع فى حالة إغماء . وكل هذا يحدث دون أن يقصد البحث عن أى شئ كان ، وهذه التأثيرات تتعلق بجسمه أكثر من أن تكون نتيجة لعصاه السحرية . وإذا أردتم أن تشبعوا حب استطلاعكم ، فانى أستطيع أن أستزيدكم وأرضيكم . . . » . كلا فان بوالو لا يتوق إلى الاستزادة ، وهو لا يتأثر بالوصف الذى أرسله إليه صديقه ، ويرد عليه فى غلظة : « أوتى — فى ٣٠ سبتمبر ١٧٠٦ — الحق يا سيدى العزيز ، أنى لا أملك إلا أن أصارحك أنى لا أتصور أن شخصا لبقا مثلك ، أمكنه أن يقع فى مثل ذلك الشرك ، بتصديق نصاب سافل قام الدليل على دجله ، ولا يستطيع أن يجد الآن فى باريس طفلا ولا مرضعة تتنازل بالاصغاء إليه . كان ممكنا أن يصدق الناس مثل أولئك النصابين أيام داجوبير وشارل مارتل ، ولكن هل يمكن أن يهتم المرء بتلك الأوهام فى عصر لويس العظيم ؟ أو ليس هذا يعنى أن سلامة الادراك قد تكون ذهبت بذهاب ما أحرزنا من فتوح وانتصارات ؟ » — إن الادراك السليم ، على العكس ساهر متيقظ . يقول ريشارسيمون « بلغنى أن فى باريس قوما كثيرين يحترفون التنجيم ، ويجنون من مزاولته الربح الجزيل . ولست أعجب لذلك . فان تلك المدينة الكبيرة تعج بشتى الأنواع والأجناس من الحمقى والمغفلين . فلا عجب إذا صدق الناس بالتنجيم (١) . »

تلك هى الاحتجاجات الفردية لذوى العقل السديد . ولكنهم فوق ذلك يعملون على تأسيس منهج ، يخلص الأرواح من الخرافات ، ويهاجم العقيدة

---

(١) ريشار سيمون Richard Simon رسائل ... الجزء الثالث ص ٥١ .

فى نفس الوقت . وهو لا يهتم مطلقا بالتمييز بين الفكرتين بل يخلط بينهما على الدوام . فالمذنبات ليست نذيراً بأى ويل ، وأصوات الآلهة ليست إلا محض دجل ، ولم يسجل الله أوامره فى عروق الحيوان ولم يأتمن عليها الحمقى والمجانين . فاذا قصدنا بالسحرة ، النصابين والمرضى ، فهناك سحرة وإلا فلا . ولاعفاريت هناك ولا شيطان . ولا سلطة إلا وفوقها سلطة . ولا تقاليد دون كذب أو ضلال . ولا معجزة هناك فان الطبيعة ليست شريكة فى هذيان الانسان(١). ولا خوارق للطبيعة ، ولا سر يستغلق على العقل : « هل تريد أن أقول لك بصفتى صديقاً قديما ، منشأ تصديقك لاعتقاد شائع دون إصغاء منك لهاتف الحكمة ؟ السبب أنك تعتقد أن فى ذلك كله شيئاً إلهيا ... ، لأنك تتوهم أن الارتضاء العام لكل تلك الشعوب ، وعلى مر القرون ، لا يمكن أن يرد إلا إلى نوع من الالهام ، Vox populi, vox dei (٢) ؛ لأنك اعتدت بصفتك لاهوتيا ألا تستعمل الاستدلال ، فور اعتقادك أنك أمام سر من أسرار الدين (٣). »

---

(١) سبينوزا : مقدمة بحث لاهوتى سياسى ، *Tractatus theologico-politicus*

(٢) صوت الشعب من صوت الله ، ومعناه أن الارتضاء الجماعى لشىء دليل على أنه حق Larousse : *locutions latines* . [المترجمان]

(٣) بيير بايل : أفكار مختلفة ـ بمناسبة المذنب باب ٨ .

الفصل الثالث

ريشار سيمون وتفسير العهد القديم

كيف كان يمكن اجتناب التعرض للكتب المقدسة ، كان المنطق يقتضى أن يصلوا فى النهاية إلى تمحيصها ونقدها ، فقد كانت تمثل السلطة العليا .

وكان المتحررون يفيضون نشوة إذا اكتشفوا فى تلك الكتب بعض التناقض . فمثلا : جاء فى سفر التكوين أن آدم وحواء كانا أول الخلق البشرى ، وأنهما ولدا طفلين : قايين وهابيل ، وأن قايين قام على هابيل أخيه فقتله . . . وقال قايين للرب « ذنبى أعظم من أن يحتمل ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى (١) » كل من وجدنى : إذن كان يوجد إذ ذاك أناس قبل آدم . وكان اسحق دى لابيرير قد وجد هذا الكشف من قديم ، وكان أنصار فكرة وجود إناس قبل آدم Préadamites قد أصبحوا الأصدقاء الأعزاء لذوى « العقول القوية » .

لنقرأ الرسالة التى بعث بها أستاذ آداب فى أكسفورد إلى نبيل من لندن فى عام ١٦٩٥ . لكل الشعوب الشرقية دون استثناء ، حتى العبريين ، خيال قصصى أسطورى . كما أن تاريخ الفرس ، والماديين ، والأشوريين ليس إلا مجموعة من الأساطير ، وكذلك العهد القديم . فان التلمود يتضمن ملايين من الأقاصيص . وقد سبق العرب العبريين فى ميدان المجاز والخيال والتشبيه ، ويثبت ذلك القرآن الكريم ، كما يثبته طوائف شعرائهم الذين انتقلت منهم إلى أسبانيا وولاية بروفانس فيما بعد ، عدوى القص عن الفرسان المغامرين ، والمردة والقصور المسحورة ، ومختلف أنواع الفروسية . . . والخلاصة أن الكتاب المقدس : is altogether mysterious, allegorical and enigmatical وأن مرجعه

---

(١) نص سفر التكوين الاصحاح الرابع ، ٨ - ١٤ . [المترجمان]

إلى تلك الأقاصيص الشرقية ، التى ليست إلا فروضا رومانتيكية : Romantick hypotheses (١) .

ووجد البروتستانت الذين عكفوا على دراسة كلام الله ، وتخليصه من التفسيرات التى تجمعت على مر الزمان ، أن تلك المهمة من الصعوبة بمكان . وقد نعوا على الكاثوليك موقفهم السلبى تجاه العهد القديم ، بينما أخذ عليهم الكاثوليك اجتراءهم المعيب . والواقع أنه تم من هذه الوجهة عمل تفسيرى كبير ، ويقوم على ذلك الدليل ، فى مؤلفات صامويل بوشارت Bochart القسيس والأستاذ فى كان ، ومؤلفات لويس كابل Louis Cappelle القسيس والأستاذ فى سومير Saumur .

أما من جهة اليهود فقد قام سبينوزا ، عارضا منهجا لتفسير العهد القديم ، شبيها بالمنهج الذى يستعمل فى دراسة الطبيعة ، وكان هذا نفس تعبيره ، ولعلك تدرك إلى أين كان ذلك المنهج يقود . ولما كان المقصد الأول لهذا المنهج وضع تاريخ صادق للظواهر والأحداث ، للوصول إلى تفسيرات صحيحة عن طريق وقائع أكيدة ، فلم يكن بد من توافر شرط أولى هو معرفة العبرية ؛ وهى مهمة صعبة التنفيذ إذ أن « النحويين العبريين لم يتركوا لنا شيئا عن أصول هذه اللغة وقواعدها » ، كما أننا « ليس لدينا قاموس ولا كتب نحو أو بيان عبرية »

ويقول سبينوزا إن الشرط الثانى ، هو أنه ينبغى علينا أن نحترم العهد القديم روحا ومعنى ، وأن نجاريه ، بدلا من أن نخضعه لأباطيلنا . — « والشرط الثالث واجب على العهد القديم ، وهو تعريفنا بما لقيت كتب الأنبياء من ظروف وحظوظ ؛ تلك الكتب التى احتفظنا بذكراها حتى اليوم ؛ وأن يبين لنا حياة وتعاليم صاحب كل كتاب ، والدور الذى قام به ، وفى أى زمن ، ولأى مناسبة ، ولمن وفى أى لغة وضع الكتاب . وليس هذا بكاف ، بل يجب أن يبين أيضا نصيب كل كتاب على وجه التحديد ، وأن يوضح لنا بأى طريقة جمع ، وفى أى يد — على التوالى — وقع ، وأى دروس وجد الناس فيه ، ومن

(١) بحثان مرسلان فى خطاب من أكسفورد إلى نبيل فى لندن . الأول يتعلق ببعض الأخطاء عن الخلق والطوفان ، وتعمير العالم بالسكان . والثانى يتعلق بنشأة الأساطير والروايات الخيالية ، وتقدمها ثم انعدامها . كتبهما (L. P.) أستاذ الآداب، لندن ١٦٩٥ .

الذى رفعه إلى منزلة الكتب المقدسة ، وأخيراً كيف تجمعت كل تلك الكتب فى كتاب واحد ... (١) »

والكاثوليك أنفسهم ألم يكن بينهم جان دى لونوى Jean de Launoy كاشف القديسين ، ومابيون Mabillon العالم الذى يجيد نقد النصوص ؟ حتى الأب فلورى Abbé Fleury « مؤلف تاريخ الأكليركية » كان ينقى حياة العذراء والحواريين مما يشوبها من أساطير : فهكذا كان روح ذلك الوقت .

إلا أن كل هذه الاتجاهات لم تتركز إلا بظهور رجل اجترأ على ذكر ألفاظ بسيطة ، لكنها قطعية حاسمة ، مثلما يأتى « أولئك الذين يحترفون النقد ، ليس عليهم إلا أن يشرحوا المعنى الحرفى لما ينقدونه ، وأن يتفادوا كل ما لا يجدى فى تحقيق هدفهم (٢) ».

***

وبظهور ريشار سيمون ونشر كتابه «تاريخ نقدى للعهد القديم» *Histoire critique du Vieux Testament* فى عام ١٦٧٨ ، اتضح ما للنقد من قدرة ونفوذ .

وكان لفظ « نقد » Critique اصطلاحا فنيا كما ذكر ريشار سيمون فى مقدمة كتابه : « أما ، ولم يظهر بالفرنسية شئ فى هذا الموضوع بعد ، فلا تعجبوا إذا رأيتمونى أستعمل فى بعض الأحايين غير المألوف من التعابير ، فلكل فن تعبيرات تخصه ، يضعها موضع التقديس . وفى هذا المعنى ستجدون فى هذا المؤلف بكثرة كلمة « نقد » وما هو منها بسبيل ، وجدت ألا مفر من استعمالها ، لكى أعبر عن آرائى بتعبيرات الفن الذى عالجته . زد على ذلك أن العلماء اعتادوا استعمال تلك التعابير فى لغتنا . فاذا تكلمنا مثلا عن كتاب كابيللى Cappelle الذى نشره تحت عنوان *Critica Sacra* ، وعن تفسيرات الكتاب المقدس المنشورة فى انجلترا تحت عنوان *Critici Sacri* ، قلنا بالفرنسية la critique de Cappelle, et les critiques d'Angleterre.

---

(١) بحث لاهوتى سياسى ، الفصل السابع .

(٢) ريشار سيمون : تاريخ نقدى للعهد القديم ، الجزء الثالث الفصل ١٥ .
Histoire critique du Vieux Testament, t. III, chap. XV.

وهذا الفن الخاص الذى يهدف إلى ألا يقتصر استعماله فيما بعد على العلماء بل ينبثق بكل جلاله ليعم الجميع ، يكمن هدفه فيه نفسه : إنه يبين درجة الوثوق ، ومدى الصحة فى النصوص التى يتناولها بالدراسة والتمحيص ، ولا وزن عنده لكل غريب عنه ، كمراعاة نواحى الجمال والأخلاق والابقاء عليها . فاذا تناول بعض الكتب المقدسة بالدراسة فهو يتجاهل اللاهوت الذى لا يقع فى اختصاصه بأى صفة من الصفات ، فلا هو يهاجمه ولا هو يدافع عنه . وهو يرى أنه لا يختص بالحكم على النص ، فلا سلطة تستطيع أن تجعل من النص شيئاً خلاف ما هو عليه بالضبط . فاذا رأينا فقرة تخالف عقيدة دينية ، وثبتت صحة الفقرة فالمعول على نص الفقرة لا على العقيدة . فمبادىء النقد واحدة لا تختلف سواء تعلق الأمر بالياذة هوميروس أو إنايد Enéide فرجيل أو التوراة ، فهى ترفض الأولية l'a priori ؛ وفور وجوده أمام كتابة سواء نقشت على حجر أو سطرت على قرطاس أو خطت على ورق ، فهو السلطان المطلق ، السيد الوحيد على أعماله الذاتية .

فالنقد يقوم على الفيلولوجيا (فقه اللغات) : الذى ينقلب من مسود إلى سيد . ولو استطاع ريشار سيمون أن يؤيد من مملكة الظلام ما قاله رينان Rénan عن مقام الفيلولوجيا الرفيع لأيده ، لأن هذا كان رأيه . أراد ريشار سيمون أن يكون ناقدا وفيلولوجيا ؛ كما أراد علماء التاريخ من قبله أن يكونوا نقادا . فقد زعموا هم أيضا أنهم لا يعرفون إلا مادة الفن ، وحسبان الزمن : ولكنهم ريعوا أمام اكتشافاتهم . أما أكثر ما كان يعوزهم فهو وعيهم الانقلاب الذى أزمعوا إحداثه . وعلى كل حال فانهم لم يتغلغلوا إلى أعماق النصوص المقدسة . من جهة النقد ، كان جروسيوس ناقدا ، فى تعليقاته وحواشيه عن تفسير العهد القديم والعهد الجديد ، ولكنه لم يلتزم جادة التدقيق إذ خرق القانون الذى التزم به من ناحيتين . فهو من جهة قد استشهد بالوثنية القديمة التى لا محل لها فى هذا المقام ، وهو من جهة أخرى أسلس قياده لآرائه الشخصية : فهو بصفته أرمينيا ، سوستيانيا قد اختار خير تفسير للنص ، ولكنه فى نفس الوقت التفسير الذى يفيد أتباع أرمنيوس وسوسان . وكان سبينوزا أيضا ناقدا ، بحيث يصعب ألا نرى فيه سلف ريشار سيمون المباشر . صحيح أن هذا الأخير يناقشه ويناقضه فى استنباطاته ، ولكن بذلك النوع

من الاحترام والتوقير الذى يكنه المرء دائما لأستاذ كبير . « لا تنعوا على أن هذا أسلوب سبينوزا الكافر ، الذى ينكر كل الانكار ما ورد فى الكتاب المقدس من معجزات . دعوا هذا الاعتقاد الباطل الذى يسئ البعض استعماله اليوم . إنما ينبغى إدانة النتائج الكافرة التى يستخلصها سبينوزا من بعض المقولات التى يفترضها . أما هذه المقولات نفسها فليست دائما باطلة ، ولا تستحق الاطراح (١) » . ولم يكن سبينوزا ، ذلك المخترع العبقرى ، عالما متضلعا من الفيلولوجيا ، وقد عانى القسم البنائى من تفسيره ذلك النقص ، فقد ترك ستافيزيقاه تطغى على علمه .

كان النقد يصل مع ريشار سيمون لأول مرة إلى نقاوته وإلى صراحته المستقلة . لا الفلسفة ولا العقيدة تؤثران على أحكامه ، ولا يهتم إلا بالمخطوط والمداد والكتابة والأحرف والعلامات المختلفة . إن العلم اللادينى يرفض الاعتراف بالسلطة المقدسة .

***

كان رجلا قميئا ، دسيما ، ذا صوت حاد رفيع كصوت النساء ، لا تلوح عليه مخايل الذكاء : « لا نستطيع أن نقول عنه ما قيل عن بعض الآخرين وهو أن الطبيعة قد كتبت على وجهه أوراق الاعتماد . » ولم تكن الطبيعة قد حابته من ناحية المولد أو المال ، فقد كان ابن حداد فقير من أهل دييب . ولكنها حبته شغفا بالبحث والدرس ، وعقلا ذا صفاء وسداد ، وعزيمة لاتغلب ولا تنقاد ، وأمدته فى نفس الوقت بحظ وافر من المرونة والعناد . درس الفلسفة والعلوم الانسانية فى « أوراتوار » دييب Diêppe ، واعتزم الانخراط فى سلك الرهبنة ، ملتزما بذلك الطريق الطبيعى ، وأرسل إلى باريس للتمرين . وأوشك أن يترك الجمعية « بسبب تقزز لم يستطع أن يتحمله » ، وكاد يقع بعد أن ارتفع ، لولا أن أغاثه رجل غنى هو الأب دى لاروك ، فهيأ له سبل العودة إلى باريس ليتم دراسة اللاهوت . وفى باريس استشعر ميوله وقرر مستقبله . لم يكن يميل أبدا إلى دراسة العلوم الانسانية ، ولم يكن مدرسيا قط ، بل

---

(١) رسائل منتخبة : طبعة ١٧٣٠ ، الجزء الرابع الرسالة الثانية عشرة .

بالعكس اجتذبه العلم العميق ، بل أقله شيوعا وأصعبه : فقد توفر على دراسة العبرية .

وعندما اندرج فى جمعية الأوراتوار فى عام ١٦٦٢ سمحوا له بمواصلة هذه الدراسة . وهنا تجد حكاية من الحكايات التى تجدها دائما تجلل مثل هذه الحياة ، وتجعل لها معنى رمزيا . فقد غضب أصدقاؤه إذ وجدوا غرفته تغص بكتب الالحاد ، مثل الكتاب المقدس المكتوب فى لندن بلغات شتى *la Bible polyglotte* ، بجانب كتب نقد مختلفة عن النصوص المقدسة ، فأبلغوا عنه . وعندها اتضح أن ريشار سيمون كان له شريك : مدير المؤسسة بالذات ، الأب بيرتاد الذى كان يقرأ معه كل يوم أصول الكتاب المقدس ، والذى برغم الستين التى سلخها من عمره جعل من نفسه تلميذا لذلك الأستاذ الصغير. فكان هذا لريشار سيمون يوم النصر الكبير .

ولعل أسعد حقبة فى حياته ، تلك الأيام التى قضاها فى مكتبة الجمعية بشارع سانت أونوريه ، ليضع بيانا عن الكتب الشرقية التى تملكها الجمعية. فأن يوسع مداركه الفيلولوجية ، ويصل إلى المصادر مباشرة ، ويجد خير الأساتذة بل أفضلهم فى الحقيقة فى متناوله ، ذلك متعة أى متعة ! وهو لم يقنع بمطالعة يومية للمطبوعات والمخطوطات ، بل عرف بعض اليهود الربانيين ولا سيما يوحنا سالفادور الذى قرأ معه العهد القديم . وفى عام ١٦٧٠ — العام الذى عين فيه قسيسا — كتب بناء على رجائه مقالا يدافع فيه عن قضية يهود ميتز Metz ، المتهمين بارتكاب جريمة قتل شعائرية .

كان يقول : إذا أردتم أن تبحروا خلال المحيط العبرى الربانى ، فاختاروا ربانا اعتاد ذلك السفر الشاق الطويل . ولقد طال سفره سنين ، ولم يغفل شيئاً يجعل السفر مستقيما مأمونا ، فاطلع على كل الخرائط وتطلع إلى كل النجوم. استفاد من إرادته والتجأ إلى كل مزاياه : وضوحه ، إذ كان بمقدوره أن يبدو واضحا حتى فى موضوعات النحو والصرف الشائكة ؛ ورجاحة عقله وسلامة إدراكه وذكائه ودقته(١) . واستمد معلوماته من علمه الغزير العميق

---

(١) كل هذه تعبيرات ف. سبانهيم F. Spanheim ، فى رسالة إلى صديق ، بها تعليق عن كتاب عنوانه « تاريخ نقدى للعهد القديم » نشرت فى باريس عام ١٦٧٨ .

ولاسيما علمه عن اليهود ؛ وأخيراً وجد نفسه مستعداً لكى يعرض على الجمهور مؤلفه « تاريخ نقدى للعهد القديم » .

« أولا ، من المحال أن ندرك تمام الادراك معانى الكتب المقدسة ، قبل أن نعرف الحالات المختلفة التى وجدت فيها نصوص تلك الكتب حسب مختلف الأماكن ومختلف الأزمان ، وقبل أن نعلم تمام العلم كل ما طرأ على هذه الكتب من تغيرات . . . » وهنا يبين المبدأ والقاعدة الأساسية لمنهجه ، وهو يكررها ويصر عليها قدر ما يستطيع . « إنى مقتنع بأنه لا ثمرة ترجى من قراءة الكتاب المقدس ، مالم نكن عالمين من قبل ، ما يتعلق بنقد النصوص . » هاك مثالا واحدا عن أهمية الفيلولوجيا : احذف كلمة واحدة ، حرف عطف بسيط مثل حرف « و » الذى يلوح كأنه لا أهمية له فى ذاته : فاذا بك تحبذ إلحادا . يبتدئ الفصل الثالث من إنجيل لوقا هكذا : « و » فى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس . . . إن ذلك يفترض وجود قصة سابقة ، مادام الحرف (و) الذى يفيد العطف عند النحويين ، يدل على صلة حتمية بشئ سابق . قل بعكس ذلك : « فى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس. . . » تجعل للملحدين القدماء عذراً فى زعمهم بأن الفصلين الأولين أضيفا فيما بعد إلى انجيل القديس لوقا . ومن باب أولى ، فان العهد القديم الحافل بصعوبات لا يمكن أن يفكر فى وجودها غير المتفقهين ، يستحيل أن نقربه إلا إذا عرفنا هذه القواعد ، وإلا إذا كانت تحدونا هذه الروح .

فلنتناول الكتاب المقدس ولنعالجه دون أية فكرة مبتسرة : فكيف يتراءى لنا حينئذ ؟ هل يمكن أن نعده كلمة الله ، أوحيت مباشرة وسجلت كتابة وانتقلت إلينا فى حالتها الأصلية ؟ يجيب ريشار سيمون على ذلك بأنه ينتج من الفحص والتمحيص أنه ما من شك فى أن النصوص المقدسة فيها معالم التحريف والتغيير ، وفيها إبهام وصعوبات ، من جهة التواريخ وأن فى بعض قصصها تبدلات غريبة فى المواضع يمكن انطباقها على فصول بأكملها . علينا إذن أن نرجع إلى الوقت الذى كتبت فيه هذه النصوص ، وأن نحاول معرفة المدنية العبرية وتفهمها . من هم الأنبياء ؟ — كتاب ؛ كتاب عموميون كانت مهمتهم تجميع وثائق الدولة بأمانة ، وحفظها فى سجلات مخصصة لهذا الغرض . « إذا كان أولئك الكتاب العموميون موجودين فى الجمهورية العبرية منذ أيام موسى ، وهذا

وافر الاحتمال ، فانه يسهل الرد على كل محاولة لاثبات أن التوراة ليست لموسى . وذلك مايثبته الناس عادة ، بالشكل الذى كتبت به ، الشكل الذى يوحى بأن أحداً آخر غير موسى هو الذى جمع التقارير وكتبها . وبفرض وجود هؤلاء الكتاب ، ننسب إليهم كل ما يتعلق بتاريخ هذه الكتب ، بينما ننسب إلى موسى كل ما يخص الأحكام والقوانين : وهذا مايسميه الكتاب المقدس شريعة موسى . » ولما كان هؤلاء الأنبياء أو الكتاب لا تقتصر مهمتهم على تجميع التقارير عما يحدث فى زمانهم وحفظها فى « السجلات » ، بل كانوا فى بعض الأحايين يصوغون التقارير التى جمعها أسلافهم فى شكل جديد : فانه يمكننا أن نفسر ما يوجد فى الكتب المقدسة من صنوف الاضافة والتغيير . وبالمثل ، إذا كانت تلك الكتب لا تخرج عن كونها مختصرات لمذكرات أطول وأوسع ، فلا عجب إذا لم نستطع وضع تواريخ مضبوطة أكيدة عن الكتاب المقدس . فمن السخف مثلا عدم الاعتراف بوجود ملوك للفرس غير الذين يذكرهم الكتاب المقدس ، واحتساب الزمن طبقا لتتابعهم ، مادام الكتاب لم يذكروا إلا ما تعلق باليهود ، بينما نجد عند المؤلفين الجاهليين إشارات إلى ملوك أخر عديدين ، ولذلك كان لديهم تاريخ أوسع وأقدم . وأخيراً فلنفكر فى عوادى الزمان ، وفى إهمال الناقلين ، ولنتخيل الظروف المادية التى كتب فيها أولئك الأخيرون . « لما كانت النسخ العبرية قد كتبت فيما سبق على لفائف أو قراطيس وضع بعضها فوق بعض ، تكون كل منها مجلداً ، فقد حدث بتغير ترتيب هذه اللفائف بطريق المصادفة ، أن تغير أيضا ترتيب الأحداث والأشياء . »

والخلاصة أن ريشار سيمون يشرح أفكاره ببساطة محسوسة ، وبقوة سلموسة ، حتى إن اللادينيين وقد هالهم فى أول الأمر تغلغلهم وراءه فى عالم غامض مقدس — يصغون لقائدهم بآذان واعية : إنه يجيد فن إخفاء مظهر البداهة المنطقية على شرح الواقع الملموس . وعلى كل حال فقد رفض أن يتكلم فى لغة اللاهوتيين ، بل أراد أن يكتب « تاريخه النقدى » فى فرنسية جزلة قوية . فان اللاتينية لا تكفى إلا للمناقشات بين المفسرين والشراح : أما التطور العام للنصوص المقدسة فيجب أن يظهر أمام كل الأبصار .

***

إن طباع الشخصيات العظيمة التى درسناها حتى الآن لبسيطة نسبيا . إنهم ثوار بالفطرة . وهم لا يتنفسون فى يسر إلا فى جو المعارضة . أما سيكولوجية ريشار سيمون فمعقدة . فهو قسيس كاثوليكى لا يعلن إخلاصه لصرامة العقيدة فحسب ، بل لروح الكنيسة أيضا ، حتى إنه لما أدانته الكنيسة ، جاهد ليثبت أنها فى قرارها هذا مخطئة .

وذلك لأنه يدعى التمسك بالدين . والواقع أنه لم ينكر الوحى ، بل هو يمتد به إلى أولئك الذين تناولوا الكتب المقدسة بالتغيير . وهو يعلن أن الله ، بعد اتصاله بموسى ، اتصل أيضاً بالكتاب والمؤرخين الذين تناولوا نصوص شريعة موسى بالتغيير على مر العصور . فان أصحاب التغييرات الواردة فى الكتاب المقدس « بما لهم من حق فى كتابة الكتب المقدسة ، لهم أيضا الحق فى إصلاحها وتغييرها . » فالأنبياء والكتاب العموميون ما زالوا مفسرين لكلام الله . فتلك التغييرات المتتابعة إنسانية من وجهة التنفيذ ، وإلهية من جهة الوحى . إن كتاب نصوص الكتاب المقدس ، قد وكلوا من قبل الله بأداء هذه المهمة المقدسة التى بدأت فى عهد موسى واستمرت على مر السنين . والشعب العبرى هو شعب الله المختار ، بشكل صريح لا شك فيه . « وفى هذا تختلف جمهورية العبريين عن كل دول العالم الأخرى ، فى أنها لم تعترف أبداً برئيس غير الله وحده ، الذى تولى حكمها بهذه الصفة حتى فى الأزمان التى خضع فيها العبريون للملوك . وذلك منشأ اكتسابها لقب الجمهورية الالهية المقدسة ، واكتساب شعوبها صفة القداسة ، لكى تتميز بهذا اللقب المجيد عن بقية الشعوب . ولهذا السبب عينه وهب الله بنفسه قوانين — عن طريق موسى وغيره من الأنبياء الذين تبعوه — لشعب اختاره ليكون شعبه الخاص » (١) .

ولينكر الآخرون قيمة التقاليد ، أما هو فعلى النقيض سيدافع عنها . ليس صحيحاً أن الكتاب المقدس واضح على الدوام ، ولا أنه تكفى قراءته لكى

---

(١) تاريخ نقدى للعهد القديم ، الكتاب الاول ، الفصل الثانى ، *Histoire critique du Vieux Testament*

نجد فيه كل أوامر الله ونواهيه . فالتقاليد مكملة له لا غنى عنها ، وهى لازمة لشرحه وتفسيره . إن « التاريخ النقدى للعهد القديم » يصر على تؤكيد قيمته . — « سترون فى هذا الكتاب أننا إذا فرقنا بين قاعدة القانون وقاعدة الواقع ، أى إذا لم نجمع بين الكتاب المقدس والتقاليد ، فقد لا نستطيع أن نؤكد شيئاً وثيقاً فى الدين . ولا يعنى إشراكنا كلام الله مع تقاليد الكنيسة إنكارا لفائدته : مادام الذى أحالنا إلى الكتب المقدسة ، هو الذى أحالنا أيضاً إلى الكنيسة ، التى سلمها تلك الأمانة المقدسة (١) . » ثم يستطرد ريشار سيمون : ليشرح أنه قبلما يكتب موسى القانون ، لم يكن الأنبياء القدماء يحتفظون بصفاء الايمان إلا بفضل التقاليد ، وأنه بعد موسى كان اليهود يستشيرون مفسرى هذا القانون فيما يستغلق عليهم من صعاب ؛ ثم هاكم أيضا ما حدث بالعهد الجديد : كان مذهب الانجيل قد تأسس فى عدة كنائس قبلما يوجد منه شئ مكتوب ، وقد حفظ هذا الكلام غير المكتوب واستقر فى الكنائس الأساسية التى أسسها الحواريون : حتى إن كبار رجال الكنيسة — مثل القديسين إرنيبه وترتوليان Saint Irénée et Tertullien — استشهدوا به فى نزاعهم ضد الملحدين بدلا من أن يلتجئوا إلى « كلمة الله» المسجلة فى الكتب المقدسة . كما استشهد الأساقفة فى المجامع les conciles بتقاليد كنائسهم لشرح الفقرات الغامضة فى الكتاب المقدس . — « لذلك ، أصدر آباء « مجمع ترانت (٢)» أمرا حكيما بعدم جواز تفسير الكتاب المقدس « ضد رأى الآباء الموحد » : وفضلا على ذلك فقد اعترف هذا المجمع بالتقاليد الصحيحة غير المكتوبة ، وزودها بسلطة تعادل سلطة كلام الله الذى تتضمنه الكتب المقدسة ، لأنه افترض فى نفس الوقت أن تلك التقاليد غير المكتوبة مصدرها السيد المسيح ، الذى أوصلها إلى الحواريين ، وأنها بعد ذلك وصلت

---

(١) تاريخ نقدى للعهد القديم ، مقدمة المؤلف.

(٢) مجمع ترانت : Concile de Trente ١٥٤٥ - ١٥٦٣ . جمعية من الأساقفة اجتمعت فى مدينة «ترانت» بالنمسا حيث قررت إصلاحاً عاما فى الكنيسة الكاثوليكية . ولقد اجتمع هذا المجمع اولا فى مدينة «مانتو» فى إيطاليا ، بأمر البابا بولوس الثالث فى عام ١٥٤٥ ، ثم فى مدينة Trente بالنمسا فى عام ١٥٤٥ ، وتم عمله فى شهر ديسمبر ١٥٦٣ . فى حكم البابا بيو الرابع PIE IV . أنظر فى هذا الصدد فولتير ، القاموس الفلسفى ، فصل المجامع . Voltaire, *Dict. Phil.* chap, Conciles. والبيان رقم ١٠٠ فى نهاية الكتاب. [المترجمان]

إلينا . ويمكن تسمية هذه التقاليد ملخصا للدين المسيحى ، الذى تأسس فى بداية المسيحية فى الكنائس الأولية ، مستقلا عن الكتاب المقدس . . . »

وعلى أساس هذه البيانات القاطعة ، يهاجم ريشار سيمون البروتستانت كالعاصفة . فالبروتستانت باستنادهم على الكتاب المقدس وحده ، لا يستندون فى نفس الوقت إلا على نص زاخر بمواضع النقص والتغيير ؛ و برفضهم الاعتراف بالتقاليد ، يرفضون فى نفس الوقت عون « الروح » التى سبقت ولازمت ووضحت هذه النصوص الغامضة . فيأخذ فى مجادلات عنيفة ضد إسحق فوسيوس Isaac Vossius قسيس وندسور ، وجاك باناج Basnage القسيس بروان Rouen ثم بروتردام . ويخص أتباع سوسان برعده الشديد لحسبانهم أن التقاليد لا قيمة لها ولا وجود ، بل إنهم يدعون جزءاً من الكتاب المقدس نفسه لكيلا يؤمنوا إلا بما يعجبهم الايمان به ، ولكى يعتقدوا ببعض العقائد التى يقبلها العقل الشامل ، ولا شئ غير ذلك . وهو فى هذا المعنى يبدو كمدافع عن الكاثوليكية .

أجل فى هذا المعنى . ولكن من ذا الذى لا يرى هنا ما فى استدلاله من عيب وقصور ، وكيف ينتقل من قيمة إلى قيمة أخرى تختلف عنها فى النوع ؟ فأولا ، نصوص الشريعة الموسوية تغطيها طبقات تراكمت على التتابع : وذلك عنده أمر واقع . وثانيا ، المؤلفون الذين بدلوا نص القانون استمروا يعملون بوحى من الله مهما تبعناهم بعيداً : وذلك ليس أمراً واقعاً ، بل اعتقاداً أو تفسيراً . فنجد من جهة ظاهرة تاريخية يمكن إثباتها بالعلم ، ومن جهة أخرى عقيدة تستند على الايمان . ونستطيع ، من وجهة نظر خارجة عن دائرة الايمان، أن نقتنع بالنظرية الأولى دون أن نقبل الثانية . نستطيع باستدلال غير دينى ، أن نقبل أن الكتاب المقدس حافل بآثار من فعل الانسان — كما أراد هو أن يثبت — دون أن نقبل أن اليهود الذين بدلوا النص القديم ظلوا معبرين عن الفكر الالهى ، وهذا ما يضيفه على أساس اعتقاد شخصى ، دون إثبات واقعى . إن ريشار سيمون يخرج عن دائرة النقد والفيلولوجيا التى سبق أن بين حدودها وقواعدها تبيانا حاسما صارما .

وإنك لتستبين هذا الخروج ، من شرحه لأفكاره فى مقدماته : ولكنا لو تبعناه فى تفاصيل كتابه « التاريخ النقدى » لاتضح لنا إلى أى حزب يقوده الميل الطبيعى لذهنه . أنظر إليه يفسر التوراة : إنه يصر على إثبات

أن موسى يستحيل أن يكون كاتبها الوحيد . فانها تحتوى على بيانات وحكم وأمثال وأشعار لغتها وأسلوبها لاحقة على موسى — وإنها تتضمن رواية أحداث لاحقة على موسى : « فهل يمكن القول — مثلا — بأن موسى هو مؤلف السفر الأخير (تثنية الاشتراع) الذى يذكر فيه موته ودفنه ؟ (١) » — والتوراة تتضمن أيضا كثيراً من الأقوال المكررة ، مثل « وصف الطوفان كما هو فى الفصل السابع من سفر التكوين » . « فقد ورد فى الآية ١٧ : وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض . وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض . ثم ورد فى الآية ١٨ : وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض . فكان الفلك يسير على وجه المياه ، وفى الآية ١٩ : وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض . فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل السماء . وهو ما يتكرر فى الآية ٢٠ : خمس عشرة ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه . فتغطت الجبال (٢) . هناك احتمال كبير ، أنه لو كان كاتب واحد قد ألف كل ذلك الكتاب ، لكان عبر عن أقواله بكلمات أقل بكثير ، ولاسيما فى حكاية واحدة ... » ويواصل ريشار سيمون عمله ؛ فترى أى تأثير يتركه فى القارئ إذا ما انتهى ؟ أن قصة الكتاب المقدس عن خلق الكون لا اتساق فيها ولا انسجام . وأنها كتبت فى أزمان جد مختلفة وبأياد لم تؤت المهارة ولا الأهلية . وأنها على الأقل اعتراها كثير من التبديل ، وفى غير حذق حتى أصبح من المستحيل أن نميز كاتبها الأصيل . فاذا وصلنا إلى هذه النتيجة فأى جدوى فى الالتجاء إلى التقاليد ؟

لذلك فان ريشار سيمون فى فحصه تلك التقاليد يجدوه روح النقد الخالص ، ولا يجدوه روح الايمان على الاطلاق . فلنتبعه أيضا فى عمله هنا ، ولننظر عن كثب كيف يأخذ فى دراسة القديس أوغسطين (٣) . يحتل هذا القديس

---

(١) التاريخ النقدى .. الجزء الأول ، الفصل الخامس .

(٢) نص الآيات من سفر التكوين ، الفصل السابع . [المترجمان]

(٣) القديس أوغسطين : من آباء الكنيسة فى القرن الخامس . لاهوتى وفيلسوف شهير . صاحب «الاعترافات» و «مدينة الله» . كان يريد أن يوفق بين الفلسفة اليونانية والعقيدة المسيحية ، وأن يثبت الاتصال بين الحكمة والايمان . ترك تأثيراً عميقاً على مالبرانش الذى كان مشغوفا بدراسة فلسفته ، وقد وصل فلسفته إلى القرن الثالث عشر القديس «توما الاكوينى» ناقلا أفكار ابن رشد فيلسوف الاسلام عن «الاتصال بين الحكمة والايمان» . [المترجمان]

الكبير مقاما ممتازا فى نقد الكتاب المقدس برجاحة عقله وصلابة حكمه . « لقد نوه أحسن التنويه فى مؤلفاته عن العقيدة المسيحية ، وفى مواضع مختلفة فى كتبه ، بالصفات اللازمة لتفسير الكتاب المقدس خير تفسير . » — إلا أنه « لما كان متواضعا فقد اعترف بأن أغلب هذه الصفات كانت تعوزه » ؛ وأنه أظهر من الدقة فى تفسيراته نزراً يسيراً . — ونظراً لجهله اللغة العبرية فقد اعترف بأن كتابه عن سفر التكوين رداً على الزنادقة المانويين (١) ، Manichéens كان فوق طاقته ؛ « ولم يخجل حتى من أن يعيب العمل الذى قام به على عجل ، ودون استعانة بالصفات اللازمة لتفسير الكتاب المقدس خير تفسير . » — فهو بدلا من أن يبحث فى المعنى الحرفى ، « لا يتوسع إلا فى المعانى المجازية ، البعيدة عن تاريخ النص وعن الحرفية » . — « و بما أوتى من ذهن وقاد نفاذ ، فقد كان يسيراً لديه أن يجد مواضع الصعوبة والغموض فى الكتاب المقدس ، حتى كشف بعضها فى مواضع تبدو أبعد ما تكون عن كل صعوبة وغموض . ولكنه لم يكن كثير الممارسة لهذا النوع من الدراسة حتى يمكنه أن يقدم حلولا واضحة ، ترضى القراء » — « وفضلا عن ذلك فقد كان متشبعاً ببعض الاعتقادات المبتسرة عن الفلسفة واللاهوت ، يحشو بها كل مؤلفاته . . . (٢) » . ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما بقى — ولنضف فقط أن ريشار سيمون يجد متعة خبيثة فى إيقاع القديس أوغسطين فى مجادلة مع القديس جيروم ، ولنتساءل بعد ذلك عن الفكرة التى يمكن أن يكونها القارئ غير الدينى عن مقدرة القديس أوغسطين ونفوذه .

وسرعان ما يرجع ريشار سيمون إلى النقد والفيلولوجيا ، فهما مصدر وحيه و إلهامه . إنه يفكر فى أعماق كيانه أن لا شئ يقف أمام « الأدلة المبينة » ، وعلى الأخص حدس « رجال الدين المتعصبين المستنيرين » . إن القول بأن « روحا خاصا » أو « هاتفا فى القلب » « يكشف لنا عن أخفى الحقائق فى

---

(١) المانويين Manichéens : الزنادقة أتباع مانيس وهو مذهب ظهر فى القرن الثالث بعد الميلاد . ويشرح مانيس وجود الخير والشر كما يشرحه زرادشت : بنسبة الخليقة إلى مبدئين أولهما الخير وهو الله ، أى الفكر أو النور ؛ وثانيهما جوهره الشر وهو إبليس أى المادة أو الظلام . (مبدأ الثنائية فى الخلق) . [المترجمان]

(٢) الجزء الثالث — الفصل الخامس .

الكتاب المقدس » ، كان يليق بأزمان الأساطير . إن ذلك الروح الخاص لا تجده اليوم أبدا إلا لدى الكويكرز(١) وغيرهم من الموتورين ، الذين يلوذون به لافتقارهم إلى المقدرة والعقل السليم .

***

ولقد واصل السير فى طريقه ، بالرغم مما صادف من عقبات ومشاق . فى ٢١ مايو عام ١٦٧٨ أبلغ بطرده من جمعية الأوراتوار ؛ وفى نفس العام حرم « التاريخ النقدى للعهد القديم » بقرار من الديوان الملكى ، وبناء على ذلك صادر البوليس نسخ الكتاب وأتلفها . وفى عام ١٦٨٣ حرمت جمعية « إندكس » Index (٢) بدورها الكتاب . ولما رأى ريشار سيمون أنه لن يتفق مع الرقابة أبدا ، وأن « مسيو الزيفييه Elzevier » (كان قد نشر كتابه فى خارج فرنسا مشوهاً نقلا عن نسخة مخطوطة ، فقد حصل على نص صحيح ونشره فى أمستردام عام ١٦٨٥ . وواصل عمله ، فقد كان لابد من أن تظهر القوة التى تعتمل فى كيانه ، وكان المنطق يقتضى أن يفسر العهد الجديد بعد العهد القديم . وعلى ذلك أخذت مؤلفاته تتوالى : فى عام ١٦٨٩ «التاريخ النقدى لنص العهد الجديد» ، وفى عام ١٦٩٠ «التاريخ النقدى لتراجم العهد الجديد» ، وفى عام ١٦٩٣ «التاريخ النقدى لتفاسير العهد الجديد» : وفى كل هذه العناوين تظهر كلمة « نقد » ، ويشرحها ريشار سيمون دائما لكيلا

---

(١) الكويكرز Quakers : مذهب دينى تأسس فى القرن السابع عشر فى انجلترا وصاحبه جورج فوكس (١٦٤٢) ثم انتشر فى أمريكا بفضل وليام پن . وكان جورج فوكس يرتعد ساعة الوحى ومن هنا كلمة كويكرز أى المرتعدون . وأتباع هذا المذهب اشتهروا بطهارة الأخلاق فهم لا يحاربون معتقدين أن القتال لا يليق بالانسان . ولا يقسمون بالانجيل بل يقولون أمام المحكمة «نعم» أو «لا» . ويخاطبون دائما بكلمة «أنت» لا «أنتم» وفضلا عن ذلك ينكرون بعض الأسرار المقدسة لدى الكنيسة كالعادة معتقدين أن المسيحية ليست عبارة عن غسل الرأس بقليل من الملح والماء . كما يرفضون تناول القربان معتقدين أنه من أباطيل الانسان . فهم لا يعتمدون إلا على البراءة وصفاء القلب . (الرسالات الفلسفية *Les Lettres Philosophiques* لفولتير رسالة ١ - ٤). [المترجمان]

(٢) جمعية إندكس Congrégation de l'Index : محكمة تأسست فى روما فى عام ١٥٦٣ حسب قرار مجمع ترانت Concile de Trente للبحث فى الكتب وتحريمها إذا كانت خطرة على الدين. [المترجمان]

يجهلها أحد : فقد كان لدى الكنيسة ، منذ أول عصور المسيحية ، علماء توفروا على تصحيح الأخطاء التى تسربت إلى الكتب المقدسة من حين إلى حين . وهذا العمل الذى يتطلب معرفة تامة بالكتب المقدسة ، وبحثا عميقا عن النسخ المخطوطة ، يسمى « نقدا » . لأننا نقدر أفضل الدروس التى يجب أن يحتفظ بها فى النص . فكلمة « نقد » لفظ فنى مخصص للمؤلفات التى يدور فيها الفحص فى مختلف الدروس لتوطيد أحقها . ولأن يجهل الناس هذا الفن فى العصور التى خيمت فيها البربرية على ربوع أوربا ، هذا محتمل ؛ أما أن يحتقر اليوم ، فهذه إهانة لا تغتفر . اليوم ينبغى أن ننسب إلى النقد الدور الذى نسبه الناس إلى اللاهوت فيما سبق . . . تخيل كيف كان غضب اللاهوتيين حينما سمعوا كلمات مثل هذه . كتب أرنو إلى بوسويه فى يوليو ١٦٩٣ رسالة يقول فيها « حسب أقوال هذا الناقد لا يجب أن نتبع إلا قواعد النحو ، وليس اللاهوت أو التقليد لكى نحسن شرح العهد الجديد ! . . . عندى أنه لا شئ أكثر من ذلك يفيد أشياع سوسان Sociniens (١) »

وأخيراً ظهر المؤلف الكبير ، « العهد الجديد للسيد المسيح ، مترجما عن النسخة اللاتينية القديمة مع ملاحظات » : ظهر فى تريفو Trévoux عام ١٧٠٢ . وكانت ترجمة لا ديدن لها إلا الاعتماد على النص ، والرجوع إلى النص ، وبيان المعنى الحرفى للنص ، بالرغم من التفاسير التقليدية التى يقول عنها ريشار سيمون إنها لا تعدو كونها تفاسير بل أخطاء ومعانى معكوسة ومع ذلك فقد انتحلت سلطة القانون . كانت ترجمة نقدية ، إذا أمكن القول ، تحمل فى حواشيها المقارنات التى أوحتها لريشار سيمون معرفته للغتين اليونانية والعبرية . « على كل حال ، لما كنت لا مقصد لى من بياناتى إلا شرح المعنى الحرفى للأناجيل وكتب الحواريين ، فلا ينبغى أبداً البحث فيها عن ذلك « التصوف » cette mystiquerie الذى لا يتذوقه إلا قليلو البصيرة والادراك من الناس » . المعنى ولا شئ غير المعنى الحرفى : « وإلا كثر وقوعنا فى تلك الرطانة الأعجمية التى يسمونها روحانية . » — ولقد حرمت هذه الترجمة .

---

(١) أرنو إلى بوسويه ، يوليو ١٦٩٣ ، Arnauld à Bossuet .

***

لا ينبغى أن نجعل من ريشار سيمون رومانتيكيا ، ولا أن نلطف خلقه ، لأنه كان شرسا جافاً . ولقد كانت حياته الفكرية غنية قوية ، ولكنه كان فقيراً فى حياته العاطفية . أحب معركة الأفكار الكبرى ولكنه أحب أيضا المكائد والحيل : « لأنه ينبغى أن تعرف يا سيدى ، أن اللاهوتى المجهول بجامعة باريس ، ورينيه دى ليل René de l'Ile القسيس ، وجيروم لى كاموس Jerôme le Camus ، وجيروم دى سانت فوا Sainte-Foi ، وبيير أمبرين Pierre Ambrun ووكيل الانجيل المقدس ، وأوريجين أداماتيوس ، وأمبروزيوس ، وجيروم أكوستا Acosta ، والسيد دى مونى ، والسيد دى سيمونفيل Simonville — أن كل أولئك المؤلفين وكثيرين غيرهم ، يتجمعون فى رجل واحد » ، ريشار سيمون . ولم يتوخ الأمانة التامة فى مجادلاته مع الكاثوليك ، فقد بعث بصورة من كتابه « التاريخ النقدى » إلى أساتذة السوربون ليفحصوها ، بعد أن حذف منها الفصول الخطيرة . وكانت الشفقة المسيحية أقل شئ يثير اهتمامه فى مجادلاته الطويلة مع البروتستانت . وكان متكبراً جافا يستعمل الألفاظ اللاذعة الجارحة ، ويجد متعة فى رمى السهام الحادة . وحتى فى مؤلفاته الكبيرة — وبالرغم من التواضع الذى كان يدعيه — ترى أن ذلك التقدير الذى يشعر به نحو ذاته يصحبه دائما شئ من الاحتقار الذى يشعر به نحو الآخرين . ولكنك تستبين خبثه وحقده على الخصوص من قراءة رسائله — بل قل مجموعة شتائمه وهجوه . إنه ليس الرجل المظلوم الذى لا يجد القوة فى صفه فيدافع عن نفسه بكل الوسائل فحسب ، إنه ليس ذلك الرجل الساخط : بل هو رجل يميل إلى الالحاد ، مشغوف بعرض المذاهب التى تشتم فيها رائحة الحطب والحريق ، وبالحديث عن اللاهوتيين الذين خرجوا على الكنيسة ، ويلفت الأنظار إلى الكتب المخبأة ، الكتب المحرمة التى تتضمن بذور الشقاق ، الكتب التى تحمل مواد الانفجار . كيف السبيل إلى التوفيق بين ميول ذهنه هذه ، وتلك الشيمة الدينية التى كان يزعم أنه محتفظ بها ؟

For some, who have his secret meaning guess'd,
Have found our authour not too much a priest (١)

أما عن المعارك الداخلية الدفينة ، ولعله قد عرفها ، فلم يسر منها شيئا فى أذننا . ولكى تعرف ماذا كان إيمانه على التحقيق ، لم يكن بد من أن تطلع على مذكراته الضخمة التى أحرقها ذات يوم بيديه ، مدفوعا بنوبة من التحرز . كان قد لاذ بداره فى بولفيل بنورساندیا . وذات يوم استدعاه محافظ الولاية واستجوبه ، ويومئذ خشى أن يفتشوا بيته ويصادروا أوراقه ، فوضعها فى عدة براميل كبيرة ، ودفعها ليلا إلى أحد المروج ثم أحرقها فاستحالت إلى رماد . أما ما كان يخفى فى أعماق نفسه فلا يعرفه إلا « الذى » يسبر أعماق القلوب .

وظل يعد نفسه عضواً فى الكنيسة بالرغم من طرده من الأوراتوار ، غير ناس ذلك الشعار بل متشبثا به فى عناد وإصرار : « إنك خادم الكنيسة إلى الأبد » . ولقد واصل مهمته كعالم إلى النهاية ، لا يريد أن يعرف شيئا غير العلم ، مع احتفاظه بصفته كابن عنيد للكنيسة ، بالرغم من مؤاخذتها إياه . « لقد تناول أسرار الكنيسة بروح مسيحى يستوجب العبرة ، ثم توفى فى أغسطس من عام ١٧١٢ فى الرابعة والسبعين من عمره . . . (٢) »

***

لقد شارك ريشار سيمون فى تصحيح القيم التى سبق أن رأيناها تعتمل فى الضمائر فى شتى الأشكال ، باحتجاجه على مثل هذه الصيغ : لقد اعتاد الناس دائما — إنه معلوم من قديم — إنه تقليد قديم قدم الدنيا . . . كما أنه أثر وأنتج ، لأنه أضفى على النقد وعيا بقوته وواجباته « إن النقد لازم ومفيد » critici studii utilitas et necessitas . ولقد نشر خصمه جان لى كلير Le Clerc — الذى كان ببعض نواحى تفكيره لا يفترق عنه إلى الحد الذى يظنه الاثنان معا — فى عام ١٦٩٧ قانونا لفن « النقد » l'Art Critique الظافر . ثم إن

---

(١) درايدن : Dryden, *Religio laïci* ١٦٨٢ . « لأن بعض الذين تمنوا سرماه الدفين وجدوا أن مؤلفنا لم يكن قسيساً كما ينبغى أن يكون . »

(٢) بروزن دى لامارتنيير ، مدح ريشار سيمون Bruzen de Lamartinière, *Éloge de Richard Simon.*

ريشار سيمون هو الذى أثار تلك الحركة التفسيرية للكتاب المقدس : إن لم يكن لدى الكاثوليك الذين أرجف ضمائرهم ، فعلى الأقل لدى البروتستانت : وإن فى وجود أكثر من أربعين مناقضة « لتاريخه النقدى للعهد القديم » لدليلا أكبر الدليل على ما أثار من إزعاج واضطراب . ولم يكن عدد أتباعه كبيراً ، ولو أن تلميذه روفائيل ليفى ترجم القرآن — كما يقول لويس دى بيزانس — حسب منهج استمده منه . ولكنه ولد أفكاراً جريئة جديدة فى عقول الكثيرين . أنظر كيف يأتى بياجيو جاروفالو فى عام ١٧٠٧ فيعلن أن الكتاب المقدس حافل بالكلام الموسيقى المنظوم . والسجع الشعرى الموزون : فهل كان يجترئ على كشف ذلك الأثر الانسانى فى الكلام الالهى ، لو لم يفتح مؤلف التاريخ النقدى الطريق للاجتراء من كل الصنوف ؟

وأخيراً ، فأى ثروة لغير المصدقين . . . ! إنهم ليسوا قادرين على تمحيص الكتب المقدسة بأنفسهم ، ولكنهم مستعدون لتصديق كل مايضعف من سلطانها . وهم يقولون « كيف تريد أن أعتقد بصدق هذه الكتب المقدسة التى كتبت منذ أقدم العصور ، وترجمت إلى شتى اللغات بمعرفة قوم من الجهال ربما لم يدركوا معناها الحقيقى ، أو بمعرفة قوم من الكاذبين الذين ربما بدلوا أو زادوا أو أنقصوا ما تتضمنه اليوم من أقوال ؟ . . . (١) »

(١) بارون دى لاهونتان : محادثات فضولية ، ١٧٠٣ ص ١٦٣ ، طبع شينارد .
Baron de Lahontan, *Dialogues curieux*, 1703, éd. G. Chinard.

الفصل الرابع

بوسويه ومعاركه

لا يرى الناس بوسويه Bossuet إلا فى صورة من العظمة الجليلة ، كما يظهره لهم الرسام « ريجو » . وإذا كان من العبث أن نذكر هذه الصورة الفاخرة ، فلعل لنا فى ذلك عذراً لأنه يمكن القول بأن ذلك ضرورى : فان أسلوب بوسويه وعظمته وشهرته ماثلة أمام عيوننا أبداً . ونحن نتخيل الخطيب عادة يلقى بعض مرثياته : فهو لا يكاد يبتدئ فى كلامه حتى نحس أننا ننتقل إلى ميادين الجلال ، ثم تعلو أنغامه رويداً رويداً تشوبها مسحة من الحزن والأنين توقظ فى قلوبنا من الرنين العميق ما يشتد حتى يصبح مؤلما ، فاذا انتهت موسيقاه المقدسة بأنشودة للعالم الآخر ، خيل إلينا أننا كنا أمام رسول ، لا أمام إنسان عادى .

وصورة بوسويه هذه ليست غلطاً . ولكنها تفترض استنارة خاصة ، فقد صفى الزمن كل ما عدا النبل والجلال والنصر . بيد أن هناك بوسويه آخر : بوسويه الذليل ، التعس .

ولسنا نقصد أن نبدل شيئا فى بساطة عقيدته العميقة التى تستحق الاعجاب . فلقد آمن مرة بالأزلى ، بالشامل ، وهذه المرة كانت إلى الأبد : Quod ubique, quod semper (١) — « إن اليقين الذى جاءنا من الله له — قبل كل شئ — كماله » : ذلك المبدأ هو قوام كل عقيدته الثابتة . فهنالك يقين أوحى به الله الى الناس ، مسجل فى الانجيل ، مؤيد بالمعجزات . يقين كامل مادام إلهيا ، وبالتالى فهو متين لا يتغير : ولو أنه يقبل التغير لما كان يقينا . ومهمة الكنيسة هى أن تكون حفيظة عليه : « إن كنيسة السيد المسيح الحفيظة على العقائد التى اؤتمنت عليها ، لا تبدل فيها شيئا أبداً ؛ فهى لاتنقص

---

(١) فى كل مكان وفى كل زمان . كلمة للقديس فنسان دى ليران . [المترجمان]

أو تضيف شيئا ، لا تحذف منها الأشياء الضرورية ، ولا تضيف إليها الزوائد الباطلة . فكل مهمتها أن تجلو ما سلم إليها من قديم ، وأن تؤيد ما لقى شرحاً وافيا ، وأن تحتفظ بما أصبح مؤيدا مبيناً . . .(١) » وواجب المرء أن يتمشى مع هذا اليقين الوحيد المتين : لأنه إذا أراد كل منا أن يكون له يقين خاص، لوقعنا فى الفوضى واللامنطقية ، لأنه بديهى أن الموضوع الواحد لا يمكن أن يكون محل مليون يقين ، أو ألف ، أو مئة ، أو عشرة أو اثنين ، بل يقين واحد . « من هنا ندرك بوضوح الأصل الصحيح للكاثوليكى والملحد . فالملحد هو من كان لديه رأى : وهذا معنى الكلمة نفسها . وماذا يعنى « لديه رأى » ؟ يعنى أتباع المرء رأيه الخاص ، وشعوره الخاص . أما الكاثوليكى فكاثوليكى أى عالمى ، فهو يتبع رأى الكنيسة بلا تردد ، ودون أن يكون له رأى خاص . . .(٢)»

إيه أيها الكتاب المقدس ، أيها الكتاب العزيز ، الذى يقدم للناس ، فى شكل جميل خلاب ، مزخرف مؤثر ، تاريخ جنسهم وقانون واجباتهم فى نفس الوقت ! إنه يتضمن المبادئ التى تؤسس الكاثوليكية ، حتى إذا فسرته التقاليد ، أصبح السلطة التى تمنع الناس من جعلها موضع نقاش . إن بوسويه لا يتخلى عن كتابه المقدس ، فقد شغفه حبا منذ فجر شبابه ، وسيكن له الحب حتى أخريات أيامه . لا غنى له عنه ، فهو غذاؤه ، وهو خبزه . ومثلما يستمر الخورى الريفى فى قراءة كتاب صلوات حفظه عن ظهر قلب : فكذلك بوسويه قد حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب ومع ذلك فهو لا يكف عن قراءته . ولما كان آباء الكنيسة قد شرحوا الحقيقة الأصلية ، وأيدوها ووضحوها ، فلا عجب أن نراه يلتجئ كثيراً إليهم . وبوسويه مغرم بالمطبوعات ، ، فهو لا يكاد يتوقع نشوب مجادلة حتى يهرع إلى ما يتعلق بها من أوراق ، فان متانة إيمانه لا تمنعه من الاستعلام ، يحدوه إلى ذلك الذوق والواجب معاً . وبين كل الكتب ، تراه يؤثر أن يستشير كتب الآباء ، خدام الكنيسة ، وبين

---

(١) أول تنبيه للبروتستانت ، ١٦٨٩ ، (طبع لاشا) ، الجزء الخامس عشر ص ١٨٤ .
Premier avertissement aux Protestants, 1689, éd. Lachat.

(٢) التعاليم الأولى عن وعود الكنيسة ١٧٠٠ (طبع لاشا) ، الجزء السابع عشر ص ١١٢
Première instruction pastorale sur les promesses de l'Église, (1700).

كل الآباء يفضل القديس أوغسطين Saint Augustin . لقد لاحظه سكرتيره المتيقظ « لى ديو » Le Dieu الذى سجل أفعاله وحركاته : « كان يتغذى بمذهب القديس أوغسطين ، ويتشبث بمبادئه ، حتى إنه لم يؤيد معتقداً ، ولم يعط أى تعليمات ، ولم يذلل صعوبة إلا عن طريق القديس أوغسطين ، كان يجد لديه كل شئ . . . كان يطلب منى مؤلفات القديس أوغسطين مع الكتاب المقدس ، إذا أراد أن يلقى موعظة على الجمهور ، وكان يقرأ القديس أوغسطين إذا أراد أن يحارب ضلالا أو يوضح نقطة فى الدين . »

أما وقد وثق بعقيدته ، واستنار بالتجائه إلى الكتب ، فقد التزم بوسويه نظاما يبرر وجوده الذاتى ، وكل مجهود شخصيته لا يخرج عن ارتضاء تصويره هذا للحياة ، وترسيخه ، وإظهاره وتبيانه للناس . إن حدوده لا تضايقه بل يتقبلها عن طيب خاطر . وفى دخيلة تفكيره الخاص ، تجده يرتاح لتنظيم حياته : لأن مجهود الحياة ينبغى ألا يكون دائما نقد قاعدة تقبلها الناس مختارين راضين ، بل الاستفادة من الأمان الذى تهيئه ، لنمضى حياتنا فى إتيان الخير وفى النشاط. وعنده كلمة جديرة بالاعجاب اقتبسها من كتاب الملوك : « إن الطاعة أفضل من التضحية » . فنحن نطيع ، نطيع الله ، ونطيع الملك ، الذى يمثل الله على الأرض . ونحن نستمتع بالتصرف طوعا لرغبة « الذى » خلق النظام الذى نرتضيه ، والذى هو اليقين وهو الحياة . هكذا نخلص أنفسنا من البحث والفحص ، ومن القلق والاضطراب : على سنوال مؤلف كلاسيكى قد أذعن مرة وإلى الأبد لقاعدة الوحدات الثلاث التى ظهرت له سليمة منطقية ، فيشيد فى نطاق هذه القاعدة ، ولائذا بهذه القاعدة ، تحفة رائعة .

وبوسويه ليس مفطوراً على الزهد . إنه يحب رانسيه Rancé ويقدره : وعندما يذهب إلى « تراب » ليزوره ، يرى الرهبان راعيهم رانسيه وأسقف « مو » L'évêque de Meaux يتنزهان معاً طويلا ، يكرسان للأحاديث الودية الزمن الذى لا يقضيانه فى الصلاة . بيد أنه لا يمكث فى الدير . وهو مثل الكلاسيكيين أيضا ، يجتنب الافراط فى كل شئ ، فحتى المغالاة فى التقوى تبدو له شديدة الخطر . وهو وإن كان شرساً مع العنيدين les opiniâtres إلا أنه بالغ الحنو على الضعفاء ، كثير الشفقة بالفقراء . ومائدته ، التى لاتخلو من النبيذ الجيد ، تبدو عامرة دسمة دون ترف أو إسراف . وهو مرهف الحس

من ناحية الطبيعة ، يتذوق جمال حدائق « جرسيني » أبهى حدائق الدنيا ، كما يستمتع بالطريق الهادئ المحوط بالأشجار حيث يستطيع أن يطالع فى كتابه المقدس وأن يفكر ويتأمل . بل يحس تلك الصلات التى تتولد بين مناظر الطبيعة الرائعة ، وقلب رجل يتأثر بها وينفعل . وهو شديد القسوة فى بعض الأحيان ، ومع ذلك فهو قادر على أن يكون بالغ الحنان : فقد كانت فيه فضيلة الصداقة . وعنده أن القديس أوغسطين كان على اتفاق مع القديس فنسان دى بول ، أستاذه . وهو ليس قويا ثابتا فحسب ، بل متزنا كل الاتزان .

لا مدخل للشك إلى روح مثل هذه الروح ، التى لا تقدم على شئ دون أن تبرره أمام محاكمتها الذاتية ، والتى تعى أفكارها وإرادتها تمام الوعى : ذلك أن بوسويه — مثل الشكاك المدققين — يحاسب نفسه على سير تفكيره ونتائجه أعسر الحساب . إنه يحادث ابن أخيه ، فيحكى له عن السؤال الذى وجهه إليه ذات يوم مريض على شفا الموت ، وكيف أجاب :

« ذات يوم طلبنى شخص غير مصدق ، كان على فراش الموت ، وقال « يا سيدى ، لقد اعتقدت دائما أنك رجل شريف ، وأنت ترانى اليوم على وشك الهلاك ، فحدثنى بصراحة ، فانى واثق بك ، ما رأيك فى الدين ؟

— إنه أكيد ، لم يخالجنى الشك يوما فيه . . . (١)

فعن هذا الايمان المكين ، لا شئ يقال . ولكن بدلا من أن نتصور بوسويه عظيما ومنعزلا ، فلندمجه بين معاصريه ، لنحاول رؤيته وسط الجدال ، بين المعامع والآلام . فلننظر إليه لا فى شبابه الزاهر وظهوره المجيد ، بل فى سنى شيخوخته : ولنحاول أن نعرف ما صار إليه أمره ، خارج إطاره المذهب ، فى خضم الحياة ، ممثلا لتقليد قد شن عليه الهجوم من كل صوب وحدب ، وبهمكلا تخلى عنه عصره ، إذا أمكن القول بذلك .

***

إن « البحث اللاهوتى — السياسى » الذى أرسله إليه أرنو Arnauld ،

---

(١) لى ديو ، الصحيفة ، ١٥ مايو ١٧٠٠ ، Le Dieu, *Journal*, 15 mai 1700

والذى يملك منه نسخة فى مكتبته ، ليس كتاب ملحد فحسب بل كتابا منغصاً منكداً . ماذا . . . ! سبينوزا هذا ، هذا اليهودى الهولندى الحقير ، أيفتعل مظاهر التفوق لأنه يعرف اللغة العبرية ؟ ! إنه يعلن أنه لا اللاتينية تكفى ولا اليونانية : إما أن تعرفوا العبرية و إما ألا تتكلموا عن الكتاب المقدس .

كان بوسويه قد اكتفى « بالفولجات Vulgate (١) » لأنه يجهل العبرية : وهنا موضع الخطورة ؛ وهو لا يجهل ذلك ، فاذا أراد أن يجيب وهو عليم ، وألا يبدو متأخراً أو مضحكا ، وفضلا عن ذلك إذا أراد أن يطيع ضميره المدقق الذى كان يملى عليه واجبه ، كان عليه أن يبدأ الدراسة من جديد . ولم يكن ذلك هينا يسيراً . . . ومع ذلك فقد اشتغل . ونحن نحب أن نتخيل انعقاد المجلس الصغير ويالها من لوحة جميلة تقية : بعض الرجال الحكماء وبعض القساوسة يجتمعون بانتظام ، كل يمسك فى يده نسخة من الكتاب المقدس : هذا يقرأ النص العبرى ، وذلك يقرأ النص اليونانى ، والكل يستشيرون أيضا القديس جيروم وكبار الأساتذة ، ويفسرون ويتناقشون ، وبوسويه يقرر والأب فلورى يسجل الملاحظات . مجلس من رجال ذوى إرادة طيبة ، يكونون حلقة بحث حيث يزيدون معارفهم ويدعمونها ، لأنهم يستشعرون أن زمن التجارب الكبرى قد حان . ولكن هل سيعرف بوسويه العبرية أبداً ؟

فى يوم الخميس المقدس من سنة ١٦٧٨ قدم الأب رينودو Eusèbe Renaudot الذى كان عضواً فى المجلس ، بياناً للأسقف عن كتاب على وشك الظهور : «التاريخ النقدى للعهد القديم» ، تأليف ريشار سيمون . وكان هذا الكتاب قد حصل على الامتياز وأجازته الرقابة وأذن به المدير العام لجمعية الأوارتوار ، وكاد الملك يقبل إهداء ذلك الكتاب ، لأن الأب لاشيز La Chaise كان قد وعد بالتدخل لهذا الغرض . ففز بوسويه فزعاً مروعا :

---

(١) الفولجات *La vulgate* : ترجمة لاتينية للكتاب المقدس ، تستعمل فى الكنيسة الكاثوليكية ، كتبها القديس جيروم فى القرن الرابع بعد الميلاد . وقد رفضها الاصلاحيون فى القرن السادس عشر بدعوى أنها تتضمن أخطاء فى الترجمة . وسمح مجمع ترنت فى ١٥٤٦ بدراسة النص القديم وأيد صحة الفولجات من حيث كونها ترجمة ذات قوة إثباتية يمكن الاستشهاد بها فى المناقشات اللاهوتية . [المترجمان]

إن التاريخ النقدى الباطل هذا ، ليس إلا كتلة من الكفر والالحاد ، بل هو قلعة للتحرر والفساد ، فيجب إيقافه . وبالرغم من قداسة ذلك اليوم ، المكرس لمراسيم الكنيسة وللحرمان ، فقد هرع إلى مشيل لى تولييه Michel Le Tellier رئيس الديوان ، وأقنعه ونجح فى منع نشر الكتاب .

ولكن أى ألم . . . ! كيف يتجاسر قسيس ، وقسيس من الأوراتوار بالذات على مثل هذه المعاملة للكتاب المقدس ! طالما يعيش ريشار سيمون فسيكون لبوسويه مصدراً للحزن والاضطراب . إن ريشار سيمون سيلف حوله ويدور ، محاولا إقناعه بأنه ليس « عنيداً » : بيد أنه لا يستطيع أن يخفى على عيون يقظة ساهرة ، تلك القوة التى كانت تدفعه . إن هذا الرجل كان يريد إبدال اللاهوت بالنحو ، فتبا له من شرير !

ولو أننا طالعنا القسم الثانى من « مقال عن التاريخ العالمى(١) » ، متذكرين أن سبينوزا وريشار سيمون يحتلان ذهن بوسويه ، لما ازداد فهمنا للهجة الحماسية التى يستعملها محامى الأورثوذكسية الكاثوليكية فحسب ، بل للصفة الحقيقية لهذا الكتاب أيضا . إنه ينقض أكثر مما يعرض ، وهو يجيب على أسباب تختلف بطبيعتها وجوهرها عن تفكير المؤلف المتميز : وإنها لمهمة شاقة ، أن يطبق المرء على إقرار دينى ، على مبدأ أولى à priori ، تبريراً تاريخيا يفرضه عليه خصومه ، تبريراً أصبح ضروريا إذا أراد حقا أن يقابلهم وأن يجابههم .

وإن قوله لواضح : فالكتاب المقدس له مصدر إلهى ، ولذا لا يحق لنا أن نتصرف حياله تصرفنا حيال كتاب بشرى . وهو بعد قوله هذا ، لابد له ، لكى يرد على المفسرين المحدثين ، من أن يتطرق إلى خططهم ، وأن يمحص ويقدر وجهات النظر البشرية . وهذا منشأ ارتباك بوسويه ، فهو مجبر على شرح كيفية جمع موسى لتاريخ العصور السالفة ، ومجبر على دحض الافتراض الذى يعزو تأليف التوراة إلى عزير (٢) Esdras ، ومجبر على دراسة النص

---

(١) مقال عن التاريخ العالمى *Discours sur l'Histoire Universelle* : ألفه بوسويه ١٦٨١ . وأصبح كتابا كلاسيكيا ، وقد ألفه لتربية ولى العهد . [المترجمان]

(٢) عزير Esdras : كاتب فى عهد أرتاكسركس ملك الفرس (القرن الخامس ق.م.) وعالم يهودى عارف بالقانون . رحل من بابل الى القدس (٤٥٨) ومعه ١٥٠٠ رجل =

باعتباره نصا ، وعلى تبرير غموضه ، وصعوباته وما فيه من تبدلات . وشرع بوسويه يهاجم مباشرة إلى الأمام ، متعجلا الخروج من هذه « المنازعات التى لا طائل وراءها » : فلندع التفاصيل ولننفذ إلى لب الموضوع : ففى كل ترجمة للكتاب المقدس نجد نفس القوانين ونفس المعجزات ونفس التنبؤات ونفس التسلسل التاريخى ونفس مجموع التعاليم وأخيراً نفس الجوهر : فماذا تبغون أكثر من ذلك ؟ وأى أهمية لبعض الاختلافات الهينة فى التفاصيل ، بجانب هذه المجموعة الثابتة التى لا يعتريها تغيير ؟ فهو طبقا لطبيعته الواضحة الصريحة على الدوام ، لا يتهرب من الاعتراض بل يواجهه و يحاول الغلبة عليه ، بهجمة سريعة شديدة : « لكن فى النهاية — وهنا تتركز قوة الاعتراض — أليس هناك إضافات فى كتاب موسى ، وما منشأ ذكر وفاته فى نهاية الكتاب المنسوب إليه ؟ ما وجه العجب فى أن الذين واصلوا تاريخه قد أضافوا نهايته السعيدة إلى باقى أفعاله لكى يجعلوا من الكل كتلة واحدة ؟ أما الاضافات الأخرى فلنر ما أمرها . فهل من قانون جديد ، هل من مرسوم جديد ،

= وعمل هناك على إصلاح الشعب والدين وأسس الدولة اليهودية (رينان : تاريخ الشعب الاسرائيلى ، الجزء الرابع ، الفصل الثامن . Renan: *Histoire du Peuple d'Israël*, 5 vol.) . ويقول العهد القديم إن عزيرا قد رحل بموافقة الملك إرتاكسركس ومعه رسالة منه موجهة إلى الشعب الاسرائيلى (العهد القديم كتاب عزيز الاصحاح الثالث ١ - ٢٨). وجاء فى القرآن الكريم فى سورة التوبة (٣٠) «وقالت اليهود عزير ابن الله» وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى فرفع الله عنهم التوراة . فخرج عزير يسيح فى الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب ؟ قال أطلب العلم فحفظه التوراة ، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه . فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام إلا أنه ابنه (تفسير أبو السعود ص ٤٠٠).

أما القائلون بأن التوراة ليست لموسى فيردون قولهم إلى ثلاثة أسباب ١) أن موسى ليس له وجود أكيد ، فان مؤرخى مصر القديمة لا يذكرون اسمه ولا معجزاته سواء فى ذلك مانيتون وهيرودوت وسانشونياتون . ٢) أن التوراة نفسها لا تقول إن موسى هو كاتبها . ٣) تقول كتب لليهود إن التوراة اكتشف وجودها فى عهد الملك جوزياس . مع أنه بين جوزياس وموسى انقضى ١١٧٧ سنة . ولم يذكر أحد الأنبياء الذين ظهروا فى هذه المدة ولو سطرين عن هذا الكتاب . فلا يستبعد إذن أن تكون التوراة كتبت فى بابل إبان أسر اليهود أو عقب ذلك مباشرة بعد عزير ، خصوصا أن التوراة فيها كثير من الكلمات الفارسية والكلدانية (القاموس الفلسفى لفولتير ، باب موسى ، وبيان رقم ١٠٠ فى آخر القاموس ، Voltaire: *Dictionnaire Philosophique*, Notes.) . [المترجمان]

أو عقيدة أو معجزة أو نبوة ؟ لا أحد يدعى ذلك ، ولا شبهة من ذلك ولا أثر ولو حدث هذا لكان ذلك بحق إضافة إلى كتاب الله : ولمنع القانون ذلك ، ولكانت فضيحة هذا التجاسر فضيحة شنعاء . فماذا إذن ؟ لعله استكمال لتاريخ نسب ؛ أو لعله تفسير لتغير اسم مدينة بفعل الزمن ؛ أو لعله بمناسبة المن الالهى الذى اقتات به الشعب الاسرائيلى أربعين عاما فى الفلاة ، تسجيل الوقت الذى توقف فيه هذا الغذاء السماوى ، ولما كان هذا الواقع قد سجل منذئذ فى كتاب آخر ، فقد استبقى على سبيل البيان فى كتاب موسى ، كواقع علمى ثابت شهده الشعب بأسره . إن أربع ملاحظات أو خمسا من هذا النوع سجلها يشوعة أو صموئيل أو بعض الأنبياء الآخرين الأقدمين — لأنها لا تتعلق إلا بوقائع شهيرة لا يتطرق إليها شك ولا غموض — كان من الطبيعى أن تنفذ إلى النص . وقد أوصلتها نفس التقاليد إلينا مع الباقى كله : أفيضيع كل ذلك فى الحال ؟ . . . »

وهنا يبتسم ريشار سيمون ويسخر . فان الاعتراف ثمين لا يقدر . فالسيد الأسقف يعترف بوجود إضافة إلى كتاب موسى ، يعترف بأن التوراة قد حورت وزورت . وبذا فان أسقف « مو » الكبير ، (مثل هويه أسقف أفرانش M. Huet, évêque d'Avranches) يصبح سبينوزيا فى نظر اللاهوتيين ، يدمر الكتاب المقدس أيما تدمير . . .

إلا أن بوسويه يعاف السخرية : « إن السخرية ليست من طباع الفضلاء » وقد لا يكون لذلك أهمية لولا أنه يشعر أن الكلمة الأخيرة لم تنطق بعد ، وأن ريشار سيمون يزداد جرأة من كتاب إلى كتاب ، وأن « المسألة أصبحت لدى الكنيسة من الأهمية بمكان » . ولم يكن فى حياته المثقلة بالمهام مكان ، فهناك تربية ولى العهد ، وإدارة أسقفيته ، وقيادة كنيسة فرنسا التى أصبح رئيسها الروحى ، والكفر الذى يتولد هنا وهناك ، وإلقاء المواعظ ، وضرورة وجوده فى البلاط ، آه . . . ! يا للعمل الشاق ! العمل الذى لا يستغرق كل أيامه فحسب بل كل لياليه : فحين تستسلم الأسقفية كلها للرقاد ، يبقى ساهراً متيقظا ، فيوقد المصباح ، ويستشير الملفات ، ويشرع اليراع . هيا ، فلا زال علينا أن ننجز هذه المهام ، وأن ندافع عن التقاليد وعن القديسين ، ضد ريشار سيمون : لأنه ليس هناك واجب أكثر إلحاحا .

وعندما ظهرت ترجمة العهد الجديد ، تملكته نوبة جديدة من السخط الشديد : لابد من المبادرة إلى مصادرة هذا الكتاب كما صادر التاريخ النقدى للعهد القديم من قبل . غير أن أربعة وعشرين عاما كانت قد انسلخت منذ ذلك الحين ، ، فنحن فى عام ١٧٠٢ الآن ، ولقد ألقى بنفسه رثاء سيشيل لى تولييه رئيس الديوان الذى كان ينقاد لمطالبه عن طيب خاطر فيما سبق . أما الآن فرئيس الديوان هو بونشارتران وهو لا يصغى إليه بل يناصبه العداء ؛ وأكثر من ذلك أيضا ! فقد أراد أن يجبره على أن يقدم للرقابة « التعليمات » التى كان قد أعدها ضد ريشار سيمون . ولولا الملك الذى بقى على وده معه ، لخسر دعواه . كيف يخضع هو — بوسويه — للرقابة ! وكيف يستجويه القضاة ! هو ، بوسويه فى صورة شخص مغموم بل مهزوم ! إن السلطة تفر من يده ، فقد تغيرت الأزمان ، وظفر المتحررون ، ولا شئ يستطيع أن يؤلمه أكثر من ذلك .

وطالما كان يأمر باحضار مؤلفه الكبير « دفاع عن التقاليد والآباء القديسين » *Défense de la tradition et des Saints Pères* فيعيد قراءته ، ويأخذ فى التحرير : إنه لن يفرغ منه أبداً . ذلك أنه ينبغى أن يضيف إلى كتابه الفصل تلو الفصل ، وأنه لم يكن يحارب شخصا واحدا ، بل روحا متشعبا يتحين كل فرصة للظهور . فلم تكد مسألة ريشار سيمون تنتهى ، حتى ظهرت مسألة إيلى دى بان Elie Du Pin . وكان هذا بدوره قسيساً ، وهو يبدو أقل عنادا ، بيد أن عدم اكتراثه البارد كان خطير المغزى . فقد نشر مجموعة ضخمة عن المؤلفين الأكليركيين ، قائلا إن الملحدين كانوا أحيانا أنفذ بصيرة وأصدق من الكاثوليك فى دراسة النصوص المقدسة ؛ والأكثر وحشية قوله إن النقط الأساسية التى تتعلق بأسرار الكنيسة بل بالعقيدة ذاتها ، لم تكن قد بينت بعد وحددت فى ذهن آباء الكنيسة خلال القرن الثالث بعد المسيح . فقد تكلم القديس سيبريان Cyprien عن الخطيئة الأولى فى وضوح وجلاء ، كما أنه تكلم أيضا عن التوبة والتكفير ، وعن سلطة القساوسة فى هذا الميدان ، وغير ذلك . ولكن بوسويه ساهر متيقظ . إنه لا يريد أن يأخذ ابلى دى بان بالشدة لقرابته لراسين ، ولأنه على أهبة الاستعداد للاعتراف بأخطائه . إلا أن هناك مسائل عدة لا يستطيع بوسويه أن يتحملها : محاباة

الملحدين ، وإضعاف التقاليد — فيما يتعلق بالخطيئة الأولى وفى نقط أخرى كثيرة — والخوض فى سيرة القديسين بتلك الجسارة التى لم تجر عادة الكاثوليك على السماح بها . إن شر الحريات قد أصبحت بدعة فى عصر « خطير كهذا الذى نعيش فيه . . . »

ويكتب إليه فنيلون Fénelon فى ٢٣ مارس ١٦٩٢ : « لقد سررت لرؤية الدكتور العجوز والأسقف العجوز ، ولقد تخيلتك والقلنسوة تتدلى على أذنيك تمسك بتلابيب دى بان كنسر ينشب مخالبه فى صقر ضعيف » . وما يحق لفنيلون أن يبتسم : فلولا النسر الرابض فى « سو » ، ولولا يقظته ، لتعرض ميدان الدين للغزو والتخريب . ولو أنه يشعر فى بعض الأحيان بتعب شديد(١) .

***

وبوسويه لن يتم « الدفاع عن التقاليد وعن الآباء القديسين » ، ولا « السياسة المستمدة من نفس كلام الكتاب المقدس » Politique tirée des propres paroles de l'Écriture Sainte : كم من كتب لم يتمها ـ وكلها لازمة ، وكلها ملحة ! وكان يشتغل رغبة فى الذهاب إلى انجلترا ، والدخول فى محادثات مع اللاهوتيين هناك ، وفتح عيونهم : ولكنه لن يذهب إلى انجلترا أبداً . ذلك أن انجلترا قد غرقت فى الفتنة وطردت ملكها ، وآثرت أن تنصب عدو فرنسا اللدود وعدو الكاثوليكية حاكما عليها . « إنى شديد الحسرة على انجلترا »(٢) ولقد فكر فيما سبق فى إثارة حروب صليبية ضد الأتراك : أين الزمن الذى كان يخطب فيه مادحاً القديس بيير دى نولاسك فى كنيسة الآباء « لامرسى » ، الزمن الذى كان يدهش فيه للتقدم العظيم المذهل الذى حققه الاسلام ؟ الزمن الذى كان يتألم فيه من عدم اكتراث الناس بالأتراك ، ذلك العدو الرئيسى ، أخطر إمبراطورية تشرق عليها الشمس ؟ « أى عيسى ، يا سيد

(١) صحيفة (لوديو) أول ديسمبر ١٧٠٣ « كان يقول لى ، وسط ذلك كله ، أشعر بأنى لم أعد أحتمل هذا العمل . فلتتحقق إرادة الله ! إنى على أتم استعداد للموت . والله قادر على إرسال من يذود عن كنيسته . ولو أنه أرجع لى قواى لاستعملتها فى هذا السبيل » .

(٢) رسالة فى ٢٢ ديسمبر ١٦٨٨ ، إلى الأب بيرودوت ، à l'abbé Perroudot .

الأسياد ، أيها الحكم بين الدول ، والأمير على كل ملوك الأرض ، إلام تحتمل أن عدوك الأكبر ، وهو متربع على عرش قسطنطين العظيم ، يدعم دعوى محمد بقوة السلاح ، ويصرع هلاله صليبك ، وينتصر كل يوم على المسيحية بسيفه المجدود ؟ » عندئذ كان لويس الرابع عشر الشاب يبتسم لفكرة تلك المشروعات العظيمة . فلم يعد هناك محل الآن للذهاب إلى الشرق البعيد . اليوم لا أحلام ولا أوهام . كلما ذكرت الحروب الصليبية ، لم يكن المتحررون وحدهم يبتسمون ، بل يرى رجال الدين الأتقياء أيضا أنه يحسن أن يدعوا الأتراك فى سلام : فكان فلورى يقول ، لقد استفقنا من وهم الحروب الصليبية ، فلم يعد لها موضع إلا فى أمنيات الشباب الذين تدفعهم الحماسة أكثر مما تنيرهم المعرفة ، أو فى قصائد بعض الشعراء المداهنين .

وكان بوسويه كعادته دائما ، ثابتا لا يتزعزع . إلا أنه يمكن القول بأن الأمور أخذت تنزلق من حوله ، وتظهر فى لون جديد ، حتى إنه لم يعد يتعرفها . ولقد كان معتادا أن يحيطه الناس بصنوف الرعاية والتقدير ، وحتى فى وطيس الجدال كانوا يحترسون حماسته وشفقته وإخلاصه . ولقد غمره الأساقفة والأمراء الأجانب بمظاهر التقدير والتوقير . إلا أنه منذ استقر الاصلاحيون فى هولاندة ، لم يبق للمراعاة والتوقير أثر ، ولا حتى للأدب . بل إنهم أهانوه . إن جوريو Jurieu الذى لم يسلم من هجومه أحد ، كان يختص بوسويه بالهجوم . فاتهمه بالتنكر والخداع والكذب ، وأثار فى أخلاقه الريب ، واتهمه بمعاشرة خليلة . وكان فظا أغلظ له القول : إن بوسويه يدعو نفسه «مولاى» ها . . . ها . ! يظهر أن هؤلاء الأساقفة قد ارتفع مقامهم أيما ارتفاع منذ مؤسسى المسيحية ، الذين لم يكن لهم لقب غير خدام السيد المسيح . إن بوسويه خطيب متعاظم لا شرف له ولا إخلاص ، ولا عقل سليم لديه ولا احتشام ، وهو جاهل كل الجهل ، مجترئ مقحام . لكى ينكر امرؤ ما ينكره بوسويه ، يجب أن يكون صاحب جبين من نحاس ، أو أخا جهل عميق عجيب .

إلا أن بوسويه لم يكن من أولئك الذين لا يتأثرون بالاهانات ، أو أولئك الذين يجدون متعة فى إثارتها ، أو تلقيها . فقد كان يشعر بانفعال وغضب شديد يخون قدرته على احتمال الآلام : كان يتألم ويتعذب إذا تعلق الأمر بمن كان يكن لهم الحب مثل فنيلون ، أو إذا نجحت الاهانات فى المساس بسلطته ،

أو قلت من جدارته على تفسير كلام الله . ثم وقف جوريو فى طريقه الشاق الأليم يقذفه بالطين ، ويسميه رجلا لا شرف له ولا إيمان ، ويتهمه بالكذب والنفاق . عندئذ أصدر بوسويه صيحة ، بل نداء مؤثراً وجهه إلى الله المطلع على كل شئ ، والذى يدير كل الأمور لصالح الأرواح :

« رباه ، استجب دعائى ، يا رباه ! لقد بعثوا بى لأتلقى حكمك الرهيب كمفتر كذاب ، يلقى على « الاصلاح » تهمة الكفر ، والتجديف ، والخطأ الجسيم ؛ مفتر لم يتهم الاصلاح بتلك الجرائم فحسب ، بل اتهم أسقفا بأنه اعترف بها . ربى إنى اتهمت أمامك . . . فاذا كنت قد قلت الحق ، وإذا أقنعت بالتجديف والافتراء أولئك الذين أرسلونى لأتلقى حكمك كمفتر كذاب، كرجل لا إيمان له ولا شرف ولا ضمير ، فاللهم أدعوك أن تبيض وجهى أمامهم . ولتحمر وجوههم خجلا ، ولتفحمهم ، ولكنى أتوسل إليك يا رب أن يكون إفحامك لهم إفحاما شافيا فيه التوبة وفيه السلام . . . (١) »

***

إن كل ريح من الالحاد تجعله يرتعد . وقد كان على علم بكل ما طبعه المتحررون . ولم يقنع بمطالعة مؤلفات جروسيوس السوسنيانى : بل امتد بحثه عن مؤلفات كريليوس Crellius وسوسان Socin صاحب المذهب إلى شتى المكتبات ، لأنها المصدر الذى تسرى منه السموم إلى الأرواح . . . — لا تظنوا أنه يجهل المناقشات الدائرة عن استراليا ، ولا الاعتراض الذى يوجه إلى الكاثوليكية بدعوى أنها ليست دينا عالميا ، ماداست توجد قارة بأكملها عاش سكانها دون أن يسمعوا بالمسيح : إنه لا يجهل ذلك . فتسمعه يصيح « هيا إذن ناقشوا القديس بولس بل السيد المسيح أيضا ، ودللوا أمامهما بأراضى استراليا ، وحاجوهما فى المواعظ التى سمعتها الأرض قاطبة ! »

وهو لا يجهل شيئا أيضا عن أولئك الصينيين الذين يثيرون الحيرة

---

(١) الانذار الثانى إلى البروتستانت ١٦٨٩ الفصل الخامس عشر ص ٢٧٥ .

Deuxième avert. aux Protestants, 1689, éd, Lachat, XV, p. 275.

والارتباك : بل يشترك فى مؤامرة الارساليات الأجنبية ضد الجيزويت ،لاجبارهم على الاعتراف بأن المراسيم الصينية إن هى إلا وثنية . وقد اتخذ لديه قرار نشر الرسالة التى أرسلت إلى البابا عن « الوثنية والخرافات الصينية » ، قبل أن يطلع عليها الملك ، الذى ربما كان يتدخل لصالح الآباء الجيزويت . كما أن المبعوثين يحضرون إلى الأسقفية لاخباره بما يجرى هناك بجوار بكين : لقد حضر أسقف روزالى صباح اليوم وبعد الظهر لمحادثة أسقف مو عن شئون ذلك البلد وعن أخلاقه ، وعن مواهب تلك الشعوب . . . » . يا للاجتراء على الحديث عن كنيسة صينية من تجديف ! إن بوسويه يعلن فى سخط : « أنها كنيسة عجيبة لا إيمان لها ولا وعد ولا محالفة ولا أسرار ولا أقل أثر للشواهد الالهية : كنيسة لا يعرف الناس فيها من يعبدون ولا لمن يقدمون القرابين ، إذا كانوا لا يقدسونها للسماء والأرض وما بها من آلهة كآلهة الجبال والأنهار ؛ كنيسة هى أخيراً كتلة مهوشة من الكفر والسياسة واللادينية والوثنية والسحر والتنجيم ! . . . »

وهو لا يجهل علماء التاريخ وعملهم العميق ؛ فلا عجب أن نجد فى مكتبته مؤلفات مارشام وكتابه «تاريخ الناموس الدينى لدى المصريين .» *Chronicus Canon Ægyptiacus* . ويتهم جان لى كلير بوسويه باقتباس كثير من آراء مارشام Marcham ونسبتها إلى نفسه . والحق أنه عندما نشر مقاله عن التاريخ العالمى فى عام ١٦٨١ أراد أن يسجل الانفعال الذى أهاج معاصريه على إثر ما اتضح من اختلاف بين التاريخ المقدس والتاريخ اللادينى ؛ وأنه وإن كان يفضل المعارف التقليدية الثابتة ، فقد اعتقد أن عليه على الأقل أن يشرح لولى العهد الأسباب التى تدفعه إلى الاحتفاظ بها . ما أشق علم التاريخ ! من جهة ، يقول لنا التاريخ المقدس كيف جعل « نبوخذناصّر » بابل التى كانت قد أثرت بغنائمها من الشرق ومن أورشليم ، وكيف أن امبراطورية بابل ، بعده ، لم تستطع احتمال قوة الماديين ، وأعلنت عليهم الحرب ، وكيف عين الماديون خورس ابن قمبيز ملك الفرس قائداً عليهم ، وكيف دحر خورس القوة البابلية وضم مملكة الفرس — التى لم تكن قد ازدهرت بعد — إلى مملكة الماديين التى كانت قد بلغت من القوة مبلغاً عظيما بفتوحاتها وانتصاراتها ، وهكذا أصبح خورس سيد الشرق بأسره غير منازع وأسس أكبر

امبراطورية شهدها العالم . لكن من جهة أخرى ، نجد أن المؤرخين اللادينيين مثل جوستان ، وديودور وأغلب المؤلفين اليونانيين واللاتين الذين بقيت لنا كتبهم ، يقولون بغير ذلك . فهم لا يعرفون أولئك الملوك البابليين ، ولا يذكرونهم فى كلامهم لنا عن الملكيات ، فلا ترى فى مؤلفاتهم أثراً للملوك المشهورين من أمثال تغلث‌فلاسّر ، شلمنأسر ، سنحاريب ، نبوخذناصّر(١) وغيرهم من الملوك المعروفين فى الكتاب المقدس والتواريخ الشرقية .

لا تصدق يا مولاى أولئك المؤرخين اللادينيين . لقد ضاعت بعض التواريخ اليونانية ، ولعلها كانت تذكر ما يذكره الكتاب المقدس . إن الروم — الذين نقل عنهم اللاتين — كتبوا متأخرين . وقد كانوا يهتمون بالبلاغة فى مقالاتهم أكثر مما يدققون فى أبحاثهم ، يريدون تسلية هلاس بقصص قديمة يبنوها على مذكرات مهوشة . لن تصدق بها ، فانما أنت تصدق بالكتاب المقدس ، فهو أكثر اهتماما بأمور الشرق ، ولذا فهو أقرب إلى الحقيقة ، حتى ولو لم نعلم أنه قد أملاه الروح القدس . . .(٢)

ولما نشر المقال ذاته فى عام ١٧٠٠ لثالث مرة ، عندئذ اتضح للناس ما كان يشغل ذهنه . فقد ظهر فى عام ١٦٧٨ كتاب الأب بزرون « قدم الأزمان » ، وظهر الردان اللذان دبجهما الأب مارتينای والأب لوكيان فى عامى ١٦٨٩ ، ١٦٩٠ : فجمع بوسويه كتلة الأفكار والوقائع الواردة فى هذه الكتب . كان متضايقاً ، مثل علماء التاريخ ، من المصريين والأشوريين والصينيين ، الذين يطالبون بالقرون الطويلة لتعزيز تاريخهم ، حتى فجروا إطار التاريخ المقدس . فنصح ، مثلما فعل الأب بزرون — فى سبيل تذليل هذه الصعوبة الخطيرة ، بالتجاء إلى « الترجمة السبعينية » التى تسمح بخمسة قرون زائدة لاسكان أولئك المضايقين ، واضطر ، مثله أيضا ، أن يفاضل ، لأسباب تاريخية ، بين ترجمتين للكتاب المقدس ، لم تتفقا فى قياس الزمن . وما من شك فى أنه لم يتعرض طوال حياته لارتباك فى مثل هذه القسوة .

---

(١) تغلث فلاسر ، شلمنأسر ، سنحاريب ، ملوك أشور (العهد القديم ، الملوك الثانى اصحاح ١٥ ، ١٦) ونبوخذ ناصر ، ملك بابل . [المترجمان]

(٢) مقال عن التاريخ العالمى ، طبع ١٦٨١ ص ٤١ وما بعدها .

***

إن سيماءه الحقيقية ترتسم رويداً رويداً : إنه ليس البنّاء الهادئ الآمن لكاتدرائية فاخرة شيدت على طراز لويس الرابع عشر ، بل هو أقرب إلى العامل المشغول المتعجل الذى يجرى و يهرول ليصلح ثقوبا تزداد خطورتها يوما فيوما . إن بصيرته تمتد حتى المبادئ : إذ كان يراقب ، ويقيس الجهود الواسعة العظيمة التى يقوم بها الملحدون لتقويض أسس كنيسة الله .

إن سبينوزا ، بانكاره المعجزة ، يريد إخضاع الله لقوانين الطبيعة . آه ! فليحذر الناس أن تفتتن عقولهم بذلك الإله ـ الكون ، ذلك الإله الذى لايعدو كونه ظلا ! أما الله الذى عبده موسى فله قدرة أخرى : « إنه يستطيع أن يبنى وأن يهدم كيفما شاء ، إنه يعطى قوانين للطبيعة ، يقلبها أنى شاء . . . وإذا كان قد أتى بالعجيب من المعجزات ، لكى يثبت وجوده فى زمن كان قد نسيه فيه الناس ، وأجبر الطبيعة على الخروج على قوانينها الثابتة ، فانما أراد بذلك أن يثبت أنه السيد المطلق للطبيعة ، وأن إرادته هى القوة الوحيدة التى تحرك نظام الكون . . . » انظروا إلى الخليقة « يثبت الله بخلق الكون بكلمته ، أن لا شئ هناك يشق عليه ؛ ويثبت بانشائه متواتراً ، أنه سيد مادته وسيد فعله وسيد مشروعه كله ، وأنه لا يخضع فى أفعاله لأية قاعدة سوى إرادته المستقيمة دائما بذاتها . . . » . انظروا إلى الطوفان « حذار من التفكير فى أن الدنيا تسير وحدها ، وأن ما كان موجوداً من قبل ، سيبقى دائما على ما هو عليه ومن تلقاء ذاته . إن الله الذى خلق كل شئ ، والذى بقدرته يعيش ويبقى كل شئ ، سيغرق كل الناس وكل الحيوان ، أى سيدمر أبدع جزء من صنعه (١) . » إن بوسويه يفكر فى الخراب الذى يستطيع إله سبينوزا أن يولده فى الضمائر المسيحية ، ومن أجل هذه الضمائر فهو يرتعد من هذا الإله .

ومالبرانش أيضا يزعجه ، لأنه يجد فى أغوار فلسفته نفس التفكير . يقول بوسويه فى مرثيته لمارى تيريز النمسوية فى أول سبتمبر ١٦٩٣ « لشد

---

(١) مقال عن التاريخ العالمى ، القسم الثانى .

ما أحتقر أولئك الفلاسفة الذين يجعلون عقولهم مقياساً لمقاصد الله ، فلا يتصورونه إلا كواضع لنظام شامل ، بينما ترك الباقى يسير كيفما يسير ! كأنما هو مثلنا ، يملك نظريات عامة ، مهوشة ؛ وكأنما يمكن للعقل السامى ألا يتضمن بين مقاصده الأشياء الخاصة ، وهى وحدها ذات الوجود الحقيقى (١)» . وبوسويه يعترف بأن مالبرانش متواضع ، حسن المقاصد : ولكنه يعلم أن أشياعه ، مع كل ذلك ، يتجهون صوب الالحاد مباشرة . فاذا نحن نفذنا من القشرة المهوشة التى تغطى فلسفته إلى لبها ، لوجدنا تفسيراً للدنيا ينفى كل ما يخرق الطبيعة ؛ وهذا التفسير عينه يقوم على منهج يتضمن « سضار فطيعة » . إن الفقرة التالية من كلام بوسويه تنم عن نفاذ بصيرته وتظهر شخصيته بشكل يستحق الاعجاب :

« ينجم عن هذه المبادئ التى أسئ فهمها ، ضرر فظيع آخر يستولى على العقول من حيث لا تدرى . لأنه بحجة أنه ينبغى ألا نقبل إلا ما ندركه فى وضوح — وهذا قول وافر الصواب ، إذا خضع لبعض الحدود — فان كل امرئ يبيح لنفسه أن يقول : « أنا أدرك هذا ولا أدرك ذاك»؛ وعلى هذا الأساس وحده ، يوافق على ما يشاء ويرفض ما يشاء ، دون أن يفكر أن هناك ، بجانب أفكارنا البينة ، توجد أفكار غامضة وعامة تتضمن حقائق جوهرية ، يؤدى إنكارها

---

(١) يحسن بهذه المناسبة ذكر كلام لامارتين فى هذا الصدد . قال «الاعتقاد بأن الله يدير العالم بمقتضى قوانين شاملة وليست خاصة ، يعنى إنكار أهم صفات الله وقواته : اللامتناهى . فكما أن العناية الالهية ليس لها حدود ، فالله موجود فى كل جزء من خليقته بكليته ، كما هو موجود فى الكل بكليته ؛ بالنسبة لله فلا عدد ولا عظمة ولا صغر ولا شمول ولا تفصيل . عنده ، لكل ذرة عالم له من الأهمية ما لكل العوالم . والنسبة بين الأشياء ليست فى ذات الأشياء بل فى ذاته فقط . إنه القاعدة والعدد والقياس لكل شىء ، واللامتناهى فى كل جزء من صنعه كما هو فيه ذاته ، وكوننا ننسب إلى الله هذا التعميم : هذه القوانين وهذه القواعد التى تطبق على مجموع لعدم إمكان تطبيقها على الفرديات ، هو تشبيه لله بالانسان وللامتناهى بالمتناهى . هذه غلطة فى ميتافيزيقا فولتير . وهى ليست إلا زلة فى الاستدلال أو عيبا فى التفكير تولد مئات الأخطاء فى الفيزيقا . وهى فى الأخلاق تولد أخطاء لا تقل عن ذلك : لأنه إذا كان الله لا يتأمل ولا يحكم ولا يجازى إلا الجنس البشرى فى عموميته ، فماذا تكون أخلاق الذات الفردية ، أخلاق كل واحدة من ملايين الأرواح التى تكون هذا المجموع البشرى الشامل ؟ (لامارتين فى ، *Cours Familier de Littérature* باب فولتير) . [المترجمان]

إلى قلب الأوضاع . فتنجم عن هذه الحجة حرية فى التفكير تؤدى إلى أن يجترئ الناس ، على قول كل ما يشاءون ، دون مبالاة بالتقاليد . . . (١)» .

لكن ممن تستقى فلسفة مالبرانش ؟ من ديكارت . يفكر بوسويه ذاته فى عصر مفتون بالديكارتية ، كديكارتى إلى حد ما فيحلل ويميز ويدافع . إن ديكارت تجتمع فيه ثلاثة . أولها براهين ناجعة نافعة ضد الكفار والمتحررين ، وثانيها نظريات فيزيقية تستطيع أن تطبقها أو لا تطبقها ، وهى نظراً لعدم أهميتها بالنسبة للدين ، ليس لها أهمية كبرى فى ذاتها . وآخرها مبدأ يهدد الايمان :

« أرى . . . معركة كبرى تعد ضد الكنيسة باسم الفلسفة الديكارتية . أرى أنه يتولد فى أحضانها ، وعن مبادئها التى أسئ فهمها فيما أعتقد ، أكثر من إلحاد . وإنى لأستشف أن الاستنتاجات التى تستخلص منها ضد العقائد التى آمن بها آباؤنا ستؤدى إلى كره هذه الفلسفة ، وإلى تضييع كل الثمار التى كانت الكنيسة ترجوها منها ، لترسيخ قداسة الروح وأبديتها فى أذهان الفلاسفة (٢) . »

فلنذهب إلى أبعد من ذلك : ألا يحتمل أن تكون هناك حالة فكرية ، لم تكن الفلسفة الديكارتية فى أول الأمر إلا عرضاً لها ، ثم قوتها فيما بعد ؟ ألا يحتمل أن تكون هناك إرادة شاملة متأصلة فى الحياة ، هى مصدر كل شئ ؟ ألا يحتمل أن يكون هناك رفض هائل للخضوع للسلطة ، واحتياج لا يرد ولا يدفع للنقد الذى أصبح « المرض بل الشهوة السائدة فى هذه الأيام (٣)» . لقد راح الزمن الذى كان الانسان فيه خاشعاً أمام الله ، مطيعاً للملك ، واليوم جاء زمن « نهم الفكر » . وهنا تجمّل البلاغة الحقيقة التى يكشفها بوسويه ؛ ففى الكلمات الرائعة التالية يصف الخطيب الحالة الفكرية التى تظفر رويداً رويداً ، وتكتسب الضمائر ، والتى تروعه وتسبب له جزعا شديداً :

---

(١) رسالة إلى تلميذ لمالبرانش ٢١ مايو ١٦٨٧ ، A un disciple de Malebranche.

(٢) رسالة إلى هويه فى ١٨ مايو ١٦٨٩ ، Lettre à Huet, 18 Mai 1689.

(٣) بوسويه إلى رانسيه ١٧ مارس ١٦٩٢ «النقد الباطل الذى هو المرض والشهوة السائدة فى هذه الأيام» .

« إن منطقهم الذى يتخذون منه دليلا لهم ، لا يقدم لأذهانهم إلا فروضا وارتباكات ، والسخافات التى يقعون فيها بانكارهم للدين تصبح أصعب إثباتا من الحقائق التى يذهلهم سموها ، ونظراً لرغبتهم فى عدم الاعتقاد بأسرار لا تدرك ، فهم يقعون فى أخطاء متعاقبة لا تدرك . ماذا إذن أيها السادة إلحادهم المنكود هذا ؟ إن هو إلا خطأ ليس له نهاية ، إن هو إلا اجتراء يستخف بكل شئ ، إن هو إلا دوار اختيارى ، وبالاختصار كبر لا قبل له باحتمال علاجه ، أعنى لا قبل له باحتمال سلطة شرعية . لا تظنوا أن المرء لا تستولى عليه إلا المغالاة فى الشهوات ، فان المغالاة فى الفكر أكثر إغراء ، وهى الأخرى لها متع خفية ، ويهيجها التحريم . يظن هذا العظيم أنه يزداد رفعة عن كل شئ — حتى عن نفسه — حينما يخيل إليه أنه يرتفع فوق مستوى الدين الذى طالما احترمه ووقره ، إنه يضع نفسه فى صف أولئك الذين زالت عنهم الأوهام ، وهو يسخر فى قلبه من أولئك الضعفاء الذين لا يفعلون شيئا سوى اتباع الآخرين دون أن يقفوا على شئ من تلقاء أنفسهم ، وإذ يصبح ولا موضع لرضاه إلا نفسه ، فانه يتخذ من نفسه إلهاً(١) . »

***

لقد انعدمت البساطة ، وزال التوازن ، وامحت المقاييس ، يوم بدأ الناس لا ينقادون للسلطة ؛ واستسلم أتقى الناس وأعلمهم إلى أهواء غريبة ، فلم يعد المرء واثقا بشئ أو عارفا بشئ . ألم يفكر البعض فى نشر ، وفى إطراء مؤلف الراهبة الاسبانية مارى دى جيزو التى يقال إنها متصوفة ، بينما الحق أنها مجنونة ؟ والغلطة الوحشية التى ارتكبها عزيزه فنيلون . . . يحاول البعض الدفاع عن المسرح ، يريدون أن يثبتوا بكل وسيلة أن الكنيسة تسمح بتحرر المسرح ، ويعصرون كتب الآباء القديسين ليستخلصوا موافقتهم ، بل لقد اجترءوا على الاستشهاد بالكتاب المقدس ، مدعين أنه ذاته يتضمن ألفاظا تعبر عن الشهوات ، وأنه إذا كان الأمر يقتضى تحريم كل شئ يؤدى إلى عواقب سيئة ، فانه ينبغى تحريم قراءة الكتاب المقدس حتى باللاتينية ، مادام

(١) رثاء آن دى جونزاج ، طبع لاشا الجزء الثانى عشر ص ٥٥٢ ، *Oraison funèbre d'Anne de Gonzague*, éd, Lachat

هو السبب البرئ لكل الالحاد ، ومن من فضلكم يتفوه بتلك الحماقات والتخرصات ؟ إن هو إلا راهب ، الأب كافارو — إن الناس ينتقلون من مغالاة إلى مغالاة ، وبحجة طاعة الملك يكادون يعصون البابا ، وتوشك الكنيسة الفرنسية أن تصبح كنيسة انفصالية ، لولا وجود بوسويه ليعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وتتوالى الضربات بلا انقطاع ، ولابد من الانتقال من دفاع إلى دفاع ، بل لابد من وجوده فى كل ميدان . لشد ما يريد أعداؤه أن يزول من الميدان ! وهم من آن إلى آن يذيعون الشائعات بأن داء القلب قد صرعه ، بل يؤكدون أن ريشار سيمون قال : « دعوه يمت ، فلن يطول به الوقت . » ولكن بوسويه يقاوم على الدوام .

ولعل ذلك ، ومعيشته فى حالة حذر مغيظ ، وفى حالة مجهود لا ينقطع ، هو السبب فيما اتخذ من لهجة قاسية وحشية ليلعن كل ما يتعلق بالدنيا الخداعة : شهوة الجسد التى تسقطنا إلى أسفل سافلين ، وشهوة العيون ، وشهوة الفكر . ولا شئ يكتسب رضاه إزاء عنفه وصراسته ، لا الرغبة فى التجربة ولا فى المعرفة ، ولا الميل إلى التاريخ ، ولا العلم إذا بدا فى صورة كبر ، ولا حب المجد ولا التعلق بالبطولة : ومن أجل اشمئزازه من أخطاء الناس ، يخرج عن الانسانية . وهو لهذا السبب ينشد « العلوى » ، مدفوعا بقلب يبتغى السلوان . عندئذ يرجع إلى الانجيل ، لا للمناقشة بل للتفكير فى التقوى ، ويستسلم للذات المحبة ، ولذات الايمان : « اقرئى يا روحى مرة أخرى هذا الأمر الرقيق بالمحبة . . . » ويصعد بوسويه من قمة إلى قمة حتى يبلغ عنان السماء ، فيصل إلى تلك الدرجة الجليلة حيث الصلاة والشعر يمتزجان ، وحيث لا يعبر لسانه عن شعور سوى تلهفه الكلى للوصول إلى الحقيقة والجمال اللذان سيبقيان على الدوام .

الفصل الخامس

ليبنتز وإفلاس وحدة الكنيسة

« كان نحيل القامة ، شاحب الوجه ، أصابعه الضامرة تطيل يديه المعروقتين ، وكان بصره الكليل منذ أمد طويل ، قد حرمه من تلك المناظر التى تستولى على المرء بصورتها البصرية ؛ وكان يمشى محنيا رأسه ، ويكره الحركات العنيفة ، يستمتع بالروائح الجميلة ويجد فيها راحة وإنعاشا . ولم يكن يميل إلى الحديث سيله إلى التفكير والمطالعة فى عزلة ، على أنه إذا تبودلت أطراف حديث فقد كان يشترك فيه بكل سرور . وكان مشغوفا بالعمل ليلا ، قليل الاهتمام بالماضى ، بل لقد كان أقل تفكير حالى يشغل ذهنه أكثر من أكبر الأحداث البعيدة . لذلك كان دائما يكتب مقالات جديدة يتركها دون أن يتمها ، وكان ينساها فى اليوم التالى ، أو لا يقوم بأى مجهود للعثور عليها (١) . »

تلك هى صورة ليبنتز . ما أعنف شهوة المعرفة ، فى روحه المركبة ! إنها شهوته الأساسية . فهو مولع بمعرفة كل شئ ، إلى غاية الحدود النهائية للواقع الملموس ، وما وراءها حتى ميادين الخيال . إنه يقول : من شهد باهتمام صوراً أكثر من النبات والحيوان ، وعدداً أكبر من الآلات ، ونماذج أكثر من المنازل والقلاع ، ومن قرأ من الروايات الرائعة أكثر ، ومن سمع من القصص العجيبة أكثر ، فهو أكثر معرفة من غيره ، وإن لم يكن هناك ظل للحقيقة فيما شهد أو فيما سمع . . . وكان قد درس كل شئ : درس أولا اللاتينية واليونانية ، والبلاغة والشعر ، حتى إن أساتذته ، وقد ريعوا لشهوته المنهومة ، خشوا أن يبقى حبيساً لدراسته الأولى ، ولكنه فى نفس

---

(١) جان باروزى ، ليبنتز (الفكر المسيحى) ص ١٠ - ١٢ ، Jean Baruzi, *Leibniz* (la pensée chrétienne. p. 10 - 12)

هذه اللحظة فر من قبضتها . فانتقل من الفلسفة المدرسية واللاهوت إلى الرياضيات ، حيث كشف فيما بعد عن مخترعات فذة عبقرية ، ثم انتقل من الرياضيات إلى القانون . وعكف على دراسة الكيمياء القديمة (السيمياء) ، منقبا عن الغامض والنادر ، وعما قد يوصل ، بطرق تمتنع على الرجل العادى ، إلى شرح المظاهر . كل كتاب وكل رجل يقابله مصادفة ، كان له بمثابة تحريض على المعرفة . أما أن يستقر « كمن ثبت بمسمار » ، فى مكان معين ، أو فى نظام ، أو فى علم ، فهذا ما لا طاقة له عليه . أما أن يختار عملا معينا ، أن يصبح محامياً أومدرسا ، أن يستسلم لأعمال بعينها كل يوم فى نفس الموعد — فلا ! وارتحل ، فجاس خلال ألمانيا بلدة بلدة ، وفرنسا وانجلترا وهولاندا وإيطاليا ، وزار المتاحف وتردد على المجالس العلمية ، ودعم فكره وأغناه بألف اتصال ، جاعلا من حياته كسبا مستمراً وغنما . ثم وافق على أن يكون أسينا لمكتبة ، مصيخا سمعه للنداء المستمر لكل الأفكار البشرية ؛ ومؤرخا ليحتضن أكثر ما يمكنه احتضانه من الماضى ومن الحاضر ؛ ومراسلا عالميا ؛ ومستشاراً للأمراء ؛ ودائرة معارف دائمة الاستعداد للاستشارة . ولكن رسالته فى الحياة كانت أن يمثل فى العالم قوة ديناميتية لا تفرغ ، لأنها لم تتوقف يوما عن التزود بالوقائع والأفكار والمشاعر الانسانية .

وقد انبثقت من ضميره العامل الناشط ، الذى يحرك ويقلب مكاسبه من كل نوع ، المخترعات النافعة والنظريات الفلسفية أو الأحلام الخصبة . فانتهى إلى امتلاك ناصية كل العلوم وكل الفنون ، فضلا عن المواد اللانهائية التى أقام عليها منشآته المثالية . كان — كما قيل — « عالما رياضيا ، طبيعيا ، سيكولوجيا ، منطقيا ، ميتافيزيقيا ، مؤرخا ، قانونيا ، فيلولوجيا ، دبلوماسيا ، لاهوتيا ، أخلاقيا . » وفى هذا النشاط الفذ ، الذى نظن أن أحداً من بنى الانسان لم يسبقه إليه ، لم يكن يعجبه شئ — قبل كل شئ — مثل التنوع : إننا نستمرئ التنوع Utique enim delectat nos varietas .

لكنا نستمرئ أيضاً اختزال الأشياء إلى الوحدة Utique delectat nos varietas, sed reducta in unitatem . اختزال الأشياء إلى الوحدة : تلك هى فى الواقع الشهوة الثانية لدى ليبنتز ، الذى لا يتأثر بالتعارض تأثره بالاتساق ، والذى يهتم بكشف سلسلة التدرج الواهية التى تصل بين النور والظلام ، وبين الفناء

واللامتناهي . كان ينبغي أن يوحد العلماء فيما بينهم : أو ليس السبب في بطء تقدم العلم انفراد أولئك الذين يزاولونه ؟ فلتنشئوا المجامع العلمية في كل البلاد ، ولتتصل هذه المجامع بين كل شعب وشعب ، حتى تخصب تلك القنوات الفكرية الأرض بأمواج المعارف الجديدة . بل أكثر من ذلك ! فان ليبنتز يريد تأسيس لغة عالمية . والحق أن الدنيا مشهد أليم للتنافر والاختلاف : فالحواجز في كل مكان، والطلبات لا تلقى الجواب ، ووثبات نحو اليقين ، مقضي عليها بالضياع هباء : ارتباك مقيم من أجيال . أفليس في الامكان على الأقل إزالة بعض العقبات التي يصدم مرآها العقل ؟ أيتعذر ، في البداية ، التفاهم على معاني الألفاظ ؟ سنخترع لغة توافق الجميع ، ولا تسهل العلاقات الدولية فحسب ، بل تحمل في ذاتها صفات الوضوح والدقة والمرونة والغنى ، حتى تصبح معقولة بديهية محسوسة . فنستعملها في كافة أعمال الفكر كما يستعمل الرياضيون الجبر : إلا أنها ستكون جبراً سلموساً ، كل حد فيه يعطى صورة لعلاقته الممكنة باللفظ الذي يجاوره لأول وهلة . فيكون لدينا مقياس بياني عالمي ، يمكن اعتباره أدق أداة استعملها عقل الانسان .

إنه يتألم لانقسام ألمانيا ، وانقسام أوربا التي يود أن يهيئ لها السلام ؛ إلا أنه يوجه نحو الشرق ما يفيض من نشاطه المجاهد . ولو أننا نفذنا إلى أغوار عقلة العميقة لوجدنا فيها نفس الرغبة .إن كشفه الكبير في الرياضيات، حساب النهايات الصغرى *Calcul Infinitésimal* ، هو الانتقال من المنفصل إلى المتصل ؛ وقانونه السيكولوجي الكبير هو قانون الاستمرار : إحساس واضح يتصل بأحاسيس غامضة تقودنا رويداً رويداً ، بسلسلة من التدرج غير المحسوس ، إلى الاختلاج الأول للمجهود الحيوي (١) . إن الاتساق هو

(١) حساب النهايات الصغرى : أو فن قياس ما لا نعلم وجوده بالدقة ، إخضاع اللانهائي للحساب الجبري . ارجع إلى الرسائل الفلسفية لفولتير Voltaire, *Lettres Philosophiques* الرسالة السابعة عشرة عن اللانهائي وعلم التاريخ .

وعن تدرج الكائنات ونظرية إفلاطون : انظر إلى القاموس الفلسفي لفولتير (باب سلسلة الكائنات) *Dictionnaire Philosophique* : « لما قرأت إفلاطون لأول مرة ورأيت هذا التدرج في الكائنات ، حيث تصعد من أصغر ذرة حتى «الكائن السامي» تعجبت ، ولكن عندما نظرت باهتمام في هذا التدرج ، زال هذا الشبح الكبير ، مثلما تزول الأحلام في الصباح ، على صياح الديك ».

الحقيقة الميتافيزيقية العليا ، تذوب فيه الفوارق التى كانت تبدو مستحيلة التحويل ، والتى تتجمع فى وحدة ، يجد كل منها مكانا فيها ، طبقا لنظام إلهى . إن الكون كورس Chœur كبير ، يتوهم المرء أنه يغنى فيه أغنية بمفرده ، ولكن الواقع أنه يتبع من جهته « دوراً » هائلا ، رتبت فيه كل « نوتة » بحيث تتوافق كل الأصوات ، وبحيث يكون المجموع « كونشرتو » أكمل من انسجام الأفلاك الذى داعب خيال إفلاطون (١).

ولنقرأ هنا الصفحة الرائعة التى سجل فيها إميل بوترو Emile Boutroux الصعوبات التى لاقاها عقل مثل هذا العقل فى الوقت المعين الذى جاء فيه إلى الدنيا . — « إن الظروف التى عرضت لمهمته ليست كالظروف التى عرضت للقدماء ، لأنه يجد نفسه أمام اختلافات ومتناقضات قوتها الديانة المسيحية والتفكير الحديث ، الأمر الذى لم يعرفه الأقدمون . فالعام والخاص ، والمحتمل والحقيقى ، والمنطقى والميتافيزيقى ، والرياضى والفيزيقى ، والآلية والغائية ، والمادة والفكر ، والتجربة والفطرة ، والصلة العالمية والاختيارية ، وتسلسل العلل والحرية الأنسانية ، والعناية الالهية والشر ، والفلسفة والدين ، كل هذه النقائض — التى كشف عنها تحليل عناصرها المشتركة — تختلف الآن حتى ليخيل إلينا أن التوفيق بينها ضرب من المحال ، وأن اختيار أحد الاثنين وصرف النظر عن الآخر نهائيا ، يبدو كأنه يفرض نفسه فرضاً على كل فكر معنى بالمنطق والوضوح . والهدف الذى يرمى إليه ليبنتز هو العودة إلى مهمة

= ولما كان لليبنتز مكانة سامقة فى عالم الفلسفة ، فلعل القارىء يهمه أن يقرأ بعض المراجع عنه وعن فلسفته : بول جانيه Paul Janet « مصنفات ليبنتز الفلسفية » طبعة فليكس ألكان Félix Alcan فى جزئين ، باريس ١٩٠٠ . وليبنتز ، مصنفات مختارة ، كلاسيك جارنييه يقدمها ل . بريهان . وكتاب فلسفة ليبنتز ، للمؤلف ن . رسل Russel ترجمة م . راى التى حازت تقدير الأكاديمية (طبع فلكس ألكان ، باريس) . وكتب أوليه لابرون Ollé-Laprune عن العلاقات بين ليبنتز ومالبرانش فى كتابه القيم : مالبرانش ، طبع لادرانج ، ١٨٧٠ فى الجزء الأول ص ٢٨ . وقد دارت بين بطلى الفكر هذين رسائل عدة ، أوردها ف . كوزان V. Cousin فى كتابه «مقتطفات من الفلسفة الحديثة» . الطبعة الخامسة ، باريس ، ١٨٦٦ . [المترجمان]

(١) لنا عودة إلى هذه الفلسفة ، فى القسم الرابع من هذا الكتاب ، الفصل الخامس : ميتافيزيقا الجوهر .

أرسطو ، والبحث فى وحدة وفى اتساق الأشياء ، الأمر الذى يبدو أن العقل الانسانى قد عجز عن إدراكه ، أو لعله قد رفض قبوله (١) .»

وهكذا أراد هذا الذهن الوقاد الجدير بالاعجاب ، الجسور الهادئ معاً ، فى زمن كانت تتبارز الأفكار فيه بشدة لم يسبق لها مثيل ، وفى هياج وسخط شديد — أراد أن يتساوق فى وجهة نظر عالية ، بحيث يبدو له كل اختيار يطرح نقيضا ، لا كعلامة قوة بل كعلامة ضعف وإذعان . ترى هل ينجح فى مقصده ؟ عندما ينزل ليبنتز إلى ميدان الواقع ، منتقلا من البحث النظرى إلى التطبيق العملى ، ومنتويا أن يعالج الضمير الدينى لمعاصريه — الضمير المقطع الأوصال المثخن بالجراح — بدواء التوفيق : فالسؤال هو هل يتوصل إلى نتيجة ، أو لا تسفر جهوده إلا عن إضافة فكرة استعصاء الاصلاح إلى الشقاق القديم . بين هذه المعتقدات التقليدية ، هل كان يمكن لانسان مهما أوتى من عبقرية أن ينقذ الروح المسيحية ؟

***

لا يكاد المرء يلقى نظرة على أوربا ، حتى يرى جرحا يصدم العيون : فلقد تحطمت وحدتها المعنوية منذ حركة الاصلاح ، وانقسم سكانها إلى حزبين يتواجهان . فغدت الحروب والاضطهادات والمنازعات والاهانات ، الحياة اليومية لهؤلاء الاخوان الأعداء . فالواجب الأول على كل حالم بالانسجام أن يعالج شراً يزداد استفحالا واستشراء . والواقع أنه منذ عام ١٦٦٠ تجدد العراك بين الكاثوليك والبروتستانت : ترى أما لهذا الشطط من حد ؟ فلو أن هذا العراك استمر لكان وبالا على الايمان ، على كل إيمان؛ لأن المتحررين، وناكرى الوحى ، والكافرين يشنون على العقيدة حربا شعواء ، تزداد كل يوم اجتراء ، ولا تجد فى ملاقاتها إلا قوات متفرقة منقسمة . أما إذا توصل البروتستانت والكاثوليك إلى التفاهم ، فان المسيحيين المتفقين — بما يجدون

---

(١) إميل بوترو Emile Boutroux : مقدمة *La Monadologie* ، ١٨٨١ . وهو كتاب ليبنتز الشهير ألفه بالفرنسية فى ١٧١٤ يشرح فيه مبادىء نظريته فى (المونات) Monade وعن «الاتساق المقدر» (انظر القسم الرابع من هذا الكتاب) . [المترجمان]

فى اتحـادهم من قـوة لا تغلب — يكونون جبهة ضد الالحـاد ، وينقـذون كنيسة الله .

سوف يساهم ليبنتز بكل قوته فى سبيل هذا التوفيق . وهو عليم بمزاعم الجانبين ، وقد درس كتب الجدال دراسة طويلة ، بل هو يعلم أنها لا تتضمن فى عمومها شيئا ذا قيمة . ولقد خبر الناس . وهو ليس شخصاً أيا كان ، لأنه أثبت باكتشافاته أنه جدير بثقة المفكرين وأهل للتقدير : ففى كل أرجاء أوربا علماء أعلام فى مقدمة الصفوف يشهدون له . وهو بروتستانتى لوثرى : ولكنه — طبقا لكلمة رائعة له — فى مقصد جميل كمقصد الوحدة ، « لا يريد أن يميز الشئ الذى يميز distinguer ce qui distingue » . وهو لكى يجد منهجا ، ليس عليه إلا أن يتبع ميول طبيعته : أن يثبت أن أوجه الخلاف ليست جوهرية ، وأن أوجه الشبه عديدة تكاد تبلغ الوحدة التامة ، وأن يحقق إجماعا عاما على أبسط مبادئ الايمان ، وهى الأعمق .

ومنذ رحلته إلى باريس ، كان قد أعلن — لدى أرنو زعيم الجانسينية — دعاء Pater Noster ، يقول إن كل شخص يمكنه أن يقبله : « اللهم ، أنت الأحد ، وأنت الصمد ، أنت القادر على كل شئ ، وأنت الاله الواحد الحقيقى المستولى على كل القلوب ؛ وإنى أنا المخلوق الحقير ، لأومن بك وآمل فيك ، أحبك أكثر من كل شئ ، وأصلى لك ، وأمجدك ، وأحمدك ، وأسلم روحى إليك. اللهم اغفر لى ذنوبى ، وجد على جودك على كل الناس ، بما تراه إرادتك مفيداً لخيرنا فى الدنيا ، ولخيرنا فى الآخرة ، وقنا كل شر . آمين . » إلا أن أرنو رفض هذا الدعاء بدعوى أنه لا يتضمن اسم المسيح . وسيوجد على الدوام قوم يرفضون هذه الصيغ ، ولن تكون المهمة يسيرة ، ولكنه على الأقل كان يود الشروع فى إنجازها . ولو أنه نجح لحقق الانسجام ، ناموس الكون . ولو أنه أخفق لكانت المسئولية على الآخرين ، على العنيدين والعميان ، الذين سيطيلون الشقاق ، ويجعلونه مستحيل الاصلاح ، ويعملون على إتلاف الضمير الدينى فى أوربا .

وبدأت محاولات تقرب وئيدة تمتد على مر السنين . فى عام ١٦٧٦ لما كان ليبنتز يجرب حظه فى دراسة « السيمياء » ، تقابل فى (نورمبرج) مع أحد أشياعه وهو البارون بوانبورج Le Baron de Boinebourg

—البروتستانتي المرتد— والذى كرس كل حياته فى سبيل مفاوضات « iréniques »، كما كانوا يقولون حينذاك . واصطحبه البارون بوانبورج إلى فرانكفورت ثم إلى بلاط مايانس Mayence حيث كانت المنازعات الدينية فى ذروتها . ولما آب من باريس ، وقبل وظيفة أمين مكتبة فى هانوفر عام ١٦٧٦ ، وجد فى شخص الدوق جان فردريك — الأمير الكاثوليكى الذى يحكم رعايا من البروتستانت — الرجل الذى تأمل روما فى هداية شمال ألمانيا عن طريقه . وازدادت الحركة سرعة ، وبدأ هرج الممثلين على مسرح هانوفر : أرنست أوجست خلف جان فردريك ، والأسقف سبينولا ، الذى يحميه الامبراطور ، والذى ينتقل بين فينا وولايات ألمانيا وروما ، لينسج خيوط الوحدة . وفى عام ١٦٨٣ يعد سبينولا صيغة كأساس لاتحاد كل المسيحيين : Regulae circa christianorum omnium ecclesiasticam reunionem . ويجتمع رجال اللاهوت من الطرفين ، ويعقدون المجالس ، وبوحى من سولانوس قسيس لوكم — الراجح العقل الكريم القلب — يعدون منهجاً يرجى أن يؤدى إلى التوفيق المنشود : Methodus reducendae unionis ecclesiasticae inter Romanenses et Protestantes مشروع فى سبيل اتحاد الكاثوليك مع البروتستانت .

وذهب ليبنتز إلى أبعد مما ذهب إليه الجميع . ففى الوقت الذى يعد فيه فسخ أسرنانت فى المملكة الفرنسية وينفذ ، ودون اكتراث للشدائد العابرة ، ومقتنعاً بأن روح الوفاق هى الحقيقة وهى الحياة ، نجده يفكر ، ويؤلف إقرار الايمان المعروف باسم *Systema theologicum* ، فى لهجة بالغة الخطورة رائعة الجمال : بعد أن التمس العون الالهى بصلوات طويلة حارة ، مجتنبا بقدر ما فى طوق البشر ، روح التحزب ؛ متأملا فى الخلافات الدينية « كما لو كنت مقبلا من عالم جديد ، حديث عهد بالدين ، غريباً عن كل تعميد ، حراً من كل القيود ، توقفت بعد تفكير عميق عند النقط التى سأتناولها بالشرح والتفسير : لقد آمنت بها لأنى خلت الكتاب المقدس ، ونفوذ الزمن القديم ، والعقل السليم المستقيم ، وشهادة الواقع الوثيق ، قد اجتمعت كلها على إقناع كل شخص متجرد من الاعتقادات الباطلة . . . »

ترى عن أى اقتناع يتحدث ؟ نظراً لأنه لم يقتصر على فحص العقائد ،

ووجود الله ، وخلق الانسان والكون ، والخطيئة الأصلية ، والأسرار الدينية فحسب ، ، بل تعدى ذلك إلى أكثر النقط تعرضا للنقاش من الوجهة العملية للدين ، كالنذور ، والمراسيم ، والصور ، وعبادة القديسين ، فقد اقتنع بأنه لا شئ يحول دون تقارب الكاثوليك والبروتستانت ، واتحادهما ، وأنهما ، بتنازل كل منهما عن بعض الصعوبات الظاهرية ، يردان الوحدة إلى الايمان . أنظر كيف يتكلم عن الأنظمة الرومانية ، التى تثير فى رفاقه فى الدين — اللوثريين — السخط أو الاحتقار :

« أعترف بأن المؤسسات الدينية ، الجمعيات المقدسة ، وكل ما شاكل ذلك ، كانت دائما موضع إعجابى بنوع خاص . إنها تبدو كجيش سماوى يحارب على الأرض ، بشرط أن يبعدوا عنها كل سوء استعمال وكل فساد ، وأن يديروها طبقا لروح مؤسسيها وقواعدهم ، وأن يطبقها الأب الأقدس على شئون الكنيسة العالمية » .

وأحسن من ذلك قوله :

« وهكذا ، فان النغمات الموسيقية ، وتوافق الأصوات الرقيق ، وشاعرية الأناشيد ، وقدسية البلاغة ، وتألق الأضواء ، وشذا العطور ، والثياب الفاخرة والآنية المطعمة بالجواهر الكريمة ، والهدايا القيمة ، والتماثيل والصور التى توحى بروح التقوى ، وقوانين العمارة العلمية ، والتنسيقات الفنية ، والمراسيم الاحتفالية ، والزينات الثمينة التى تجمل الشوارع ، وأصوات النواقيس ، أو بالاختصار كل مظاهر التمجيد والتشريف التى تحب الشعوب أن تجود بها فى سبيل التقوى والعبادة ، لا تجد عند الله — فيما أرى — ذلك الاحتقار الذى يتظاهر به فى أيامنا هذه ، بعض الناس بتواضعهم الحزين ؛ وهذا على كل حال مايؤيده المنطق والوقائع معا . . . »

فهل هناك — بعد ذلك — موضع للعجب إذا رأينا روسا ، التى اقتاده إليها فى عام ١٦٨٩ وظيفته كمؤرخ وحب استطلاعه العالمى ، تعرض عليه منصب مدير مكتبة الفاتيكان ؟ أفلم يكن يحق للناس أن يعتقدوا أنه كاثوليكى مخلص، وأنه يوشك أن يهتدى ؟

***

بوسويه ؛ بوسويه هو الرجل الذى يقتضى النجاح اللحاق به : « إنكم قديس بولس آخر ، لا تقتصر أعماله على شعب واحد ، أو بلد واحد : بل تنطق مؤلفاتكم فى الوقت الحاضر بأغلب لغات أوربا ، وينشر أشياعكم انتصاراتكم فى لغات لا تعرفونها (١) . . . »

اعتقد بوسويه من زمن طويل أنه يمكن التغلب على البروتستانت بالمجادلة والمحاجة . ولما نشر فى عام ١٦٧١ كتابه « شرح المذهب الكاثوليكى » *Exposition de la doctrine catholique* ، كان يبدو كأنه يمد إليهم يده ويفتح لهم ذراعيه وكان — كما فعل ليبنتز — لا يريد أن يميز الشئ الذى يميز ، بل كان يصر على الشئ الذى يستطيع أن يوحد . ولقد خلص المذهب الكاثوليكى مما حمله المفسدون والمتغالون من غموض وارتباك ، وأثبت أن العقائد الأساسية كانت واحدة مشتركة ، وشرح عبادة القديسين ، وتكريم الصور والبقايا المقدسة وعفو الكنيسة وأسرارها والغفران فى أسلوب ينم عن روح المصالحة ، و برر التقاليد وسلطة الكنيسة ، وأوضح أن الاعتقاد بسر تناول القربان المقدس هو أساس الصعوبة الوحيدة الحقيقية ، ولو أن هذه الصعوبة لا تستعصى على الحل : فكان ذلك كله حركة كريمة صادقة منه ، حتى إنها أثرت فى العالم البروتستانتى بأجمعه ، بل لقد اتهم البعض كتابه هذا بأنه يتضمن لوثة من التحرر ، لا تتفق والأرثوذكسية ؛ ولكن الكتاب انتصر بالرغم من ذلك لفوزه بموافقة الأساقفة والبابا نفسه ، ولقى رواجا كبيراً فى أوربا : « سيكون لشرحنا هذا لمذهبنا ، أثران طيبان ، أولها أن كثيراً من المنازعات ستزول زوالا تاما ، لأن الناس سيعرفون أنها كانت تقوم على تفسير باطل لعقيدتنا ؛ وثانيهما أن ما سيتبقى من فوارق لن يبدو — حسب مبادئ الاصلاحيين ، les Réformés أساسيا إلى الحد الذى زعموه وحاولوا إقناع الناس به ، وأنه طبقا لهذه المبادئ نفسها ، لم يكن فى هذه الفوارق ما يجرح أسس الايمان . »

صحيح أنه قد امتدح (فسخ أمرنانت) ، الذى كان يبدو له منطقياً ،

---

(١) لورد بيرث إلى بوسويه ، ١٢ نوفمبر ١٦٨٥ ، Milord Perthe à Bossuet, 12, Nox. 1685

الأمر الذى أوسع الخرق بينه وبين البروتستانت ؛ فيوم خطب عن كلمات الانجيل « ألزمهم بالدخول » Compelle intrare ، أمام البلاط مجتمعاً فى يوم الأحد ٢١ أكتوبر عام ١٦٨٥ ، لم يكن بد من أن يعده البروتستانت لا فى صف خصومهم فحسب ، بل عدوا لهم أيضاً . ونحن نعرف كيف أثار نشر « تاريخ تبدلات الكنائس البروتستانتية » فى عام ١٦٨٨ عواصف عنيفة . ففى خلال أشهر ، وفى خلال سنين ، ظهرت مناقضات وردود ، وردود على الردود ولم يكن فى هذه أو تلك شئ من الرقة : « ليس من اللازم أن نشرب كل ماء البحر لندرك أنه ملح ، كما أنه ليس من اللازم أن نحتفظ فى ذاكرتنا بكل الاهانات التى يوجهها الناس إلينا ، لنشعر بالحقد الذى يضمرونه لنا (١) . »

وهنا تدخل المسألة فى مرحلة خطيرة وتصل إلى درجة مؤثرة . كيف يمكن ، بعد فسخ أمر نانت ، البحث فى وحدة الكنائس ؟ ومع ذلك فقد كانت هذه الوحدة مرغوبة من كل جانب ؛ ففى السويد وفى انجلترا وحتى فى روسيا قوم يحاولون جمع أصحاب الارادة الطيبة فى صف واحد . ولكن كيف يمكن التفكير فى المصالحة والتوفيق بينما القادة لا يكفون عن العراك ؟ ومع ذلك فقد كان هذا حلم ليبنتز ، الذى التمس المعونة من بوسويه .

وهما سيتفاوضان ، إن لم يكن بلحمهما ودمهما ، فعلى الأقل بأفكارهما وإرادتهما ، لا جالسين متواجهين ، بل بحرص ودقة كأنهما يجلسان سويا فى بهو مهيب تحت ظل الصليب . وبمعونة بعض الموقفين ، وفى ظل الغموض الذى يتمشى مع المفاوضات الشاقة الطويلة ، ينشب بين هاتين الروحين العظيمتين جدال مؤثر أليم .

***

إذا استثنينا فترة تبادل الرسائل والمجاملات ، فان الجدل أخذ يحمى ويتسع ابتداء من عام ١٦٩١ . وألفت جمهرة صغيرة من أصحاب الأرواح المتدينة فى فرنسا نظرة أمل ورجاء نحو هانوفر : بليسون Pellisson صديق فوكيه (٢)

(١) التعليمات الثانية الارشادية عن وعود المسيح لكنيستة ١٧٠١ طبع لاشا جزء ١٧ ص ٢٣٩ *Seconde Instruction pastorale* 1701 .

(٢) فوكيه Fouquet : وزير مالية فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر . [المترجمان]

القديم ، الذى سجن فى الباستيل ثم حرر وأصبح كاثوليكيا بعد أن كان بروتستانتيا ، يسعى بروح مشتعلة فى سبيل وحدة الكنيسة التى فارقها مع الكنيسة الرومانية ؛ ولويز هولاندين Louise Hollandine أخت دوقة هانوفر التى اعتزلت فى دير مويسون بعد ارتدادها عن البروتستانتية ؛ والسيدة دى برينون Mme de Brinon سكرتيرتها الناشطة المتحمسة فى سبيل الله . ومن يعرف ؟ لعل دوقة هانوفر تهتدى بدورها ؟ ولعل زوجها يحذو حذوها ! ولعل هذه الأرض الهانوفرية ذات المنبت الطيب تغل محصولا مجيداً ! لقد بدأ تبادل الاشارات : فليبنتز وبليسون يتراسلان ، ويتحاجان ، ويبدأ كلاهما يقدر الآخر ويحبه على بعد المدى . وإذا ببوسويه يهب ويدخل الميدان .

وهاهما يبدآن الجدال . وليبنتز يبحث عن منفذ للمصالحة ، عن أقل النقط حراسة أو أضعفها دفاعا لينفذ إلى داخل القلعة ، وهى النقطة التالية : يمكننا أن نخطئ فى مسائل الايمان دون أن نكون خوارج أو ملحدين ، بشرط ألا نكون عنيدين . إذا كان البروتستانت يقبلون أن كل مجلس عام للكنيسة concile œcumenique يعبر عن الحقيقة فيما يختص بالسلام ، أو إذا كانوا على خطأ فى تفكيرهم أن «مجمع ترنت» الذى قرر الانفصال النهائى ، لم يكن له صفة العمومية ، فهم على الأقل يخطئون بسلامة نية ، فلا هم خوارج ولا هم ملحدون ، وبارتضائهم ترك الأمر لحكم مجلس عام يجتمع فى المستقبل ، فهم يظلون روحياً خاضعين لوحدة الكنيسة . . . يا للأمل العظيم ! ويا للخطوة التى نخطوها فى سبيل سلام الأرواح ، لو حبذها بوسويه !

إلا أن تغيير القرارات التى وضعها مجلس عام ، بحيث يعد هذا المجلس باطلا وكأنه لم يكن — هذا هو ما لن يسمح به بوسويه بتلك السهولة . « لكيلا نخطئ فى مشاريع الوحدة هذه ، ينبغى أن نعرف جيداً أن تساهل الكنيسة الرومانية ، فى بعض المسائل غير الجوهرية ، حسب مقتضيات الزمان والظروف ، لا يعنى على الاطلاق تساهلها فى أية نقطة تتعلق بالمذهب المبين ، وخاصة المذهب الذى وضحه مجمع ترانت » . فالسماح ببعض الترضية للوثريين ، مثل تناول القربان ، هذا ممكن . أما التنازل فيما يخص مبدأ السلطة ، الحجر الأساسى للكنيسة ، فكلا بكل تأكيد . إذن فهو بطريقته العنيفة ، التى لا تتفق والدبلوماسية ، يختار الهجوم : فاذا كان السيد ليبنتز يؤمن

بالكاثوليكية ، إذا كان يعلن قبوله للمبادئ التى هى روح الكاثوليكية ، فهل هناك أيسر من ذلك ؟ فليعتنق الكاثوليكية !

ولكنه مخطئ ، إنه لا يعرف خصمه جيداً . إن ليبنتز لن يجاوز ذلك الهامش الغامض ، ذلك الحد الواهى ، الذى يفصله عن الكنيسة الرومانية . وهو لن يجاوزه أيضا ، لأن ذلك عنده مسألة ضمير شخصية ، لا يجوز أن تتعرض لأى ضغط من أية قوة خارجية ، ولا سيما أن المسألة الجوهرية ليست فى ذلك . فالأمر الذى يعنى البروتستانت ، ليس التنازل بل الوحدة . وهو نفسه مفاوض وليس هاربا خائنا . فليعلم بوسويه ذلك جيداً ، وليدع تلك الأساليب ، أساليب العجرفة والتعجيل . وليدرك الفرق بين المصالحة وتغيير الدين : « لقد قطعنا مرحلة كبيرة فى سبيل تنفيذ ما اعتقدنا أنه من مقتضيات الشفقة ومحبة السلام ، واقتربنا من شواطئ نهر بيداسووا Bidassoa (١) لعلنا ننتقل يوما إلى « جزيرة المؤتمر » . ولقد تفادينا عامدين كل الأساليب التى تثير النزاع ، وكل مظاهر الاستياز التى يعتاد كل فرد أن يخلعها على فريقه ، هذا التعاظم الجارح ، وهذه المظاهر من الوثوق الذى ، وإن كان المرء يشعر به فى الواقع ، إلا أنه من العبث ومن غير اللائق أن يظهره أمام أولئك الذين لا ينقصهم هذا الوثوق . . . » مرة أخرى ، فالسؤال الذى نلقيه على بوسويه هو عما إذا كان قولنا — بغير سوء نية — إن مجمع ترنت ليس له صفة العمومية ، يمكّننا من إعادة مناقشة قراراته . إن جواب الأسقف كان جوابا متسرعا ، فليعد النظر فى المسألة ، وسننتظره .

وعاد بوسويه إلى العمل : وبالرغم من المشاغل المتكتلة التى تثقل كاهله ، فإنه سيدرس النصوص التى كتبت حتى ذلك الحين ، والصيغة التى قدمت للموافقة عليها ، دراسة مفصلة : « سأنتهز أول فرصة مناسبة لأعبر لكم عن

---

(١) بيداسووا Bidassoa : نهر بين فرنسا وإسبانيا فيه جزيرة عقدت فيها معاهدة البرانس Pyrénées سنة ١٦٥٩ بين مازاران Mazarin نيابة عن لويس الرابع عشر وبين إسبانيا بخصوص زواج لويس الرابع عشر بماريا تيريزا Marie-Thérèse بنت فيليب الرابع بشرط تنازل فرنسا عن حقوقها فى تاج إسبانيا مقابل بائنة قدرها نصف مليون جنيه ذهباً . وكان مازاران عالما بأن إسبانيا الفقيرة لن تستطيع سداد ذلك المبلغ وبذلك تستبقى فرنسا الحق فى عرش إسبانيا . [المترجمان]

شعورى بنية خالصة. . . » — « أتمنى أن تكون هذه السنة سعيدة لكم ولكل العاملين باخلاص على اتحاد المسيحيين (١)! » . وينكب بوسويه على العمل : « إنى أوافق على المبدأ ، ومع أنى لا أستطيع أن أوافق على كل الوسائل ، فانى أرى أنكم لو صدقتم رأى المسيو مولانوس وأمثاله من الصالحين ، لزالت أغلب العراقيل ، وستعلمون شعورى فى القريب . . . »

ولم يقض ليبنتز فترة الانتظار فى خمول ، بل أخذ يبحث عن براهين ليدعم قضيته . لقد لفت الأنظار فيما سبق إلى أن فرنسا نفسها لم تعد مجمع ترنت مجلساً كنسياً عاما : وهو الآن يكاد يطير فرحا ، إذ يجد دليلا واقعيا ، سابقة يخالها لا تقبل الانكار . لقد حدث مرة واحدة على الأقل — والواقع أنه حدث فى ظروف أخرى ولكن مرة واحدة على الأقل فى ظرف مثالى فريد — أن الكنيسة الرومانية نقضت قراراً لأحد المجامع . فحينما رفضت جماعة الكاليكستيين (٢) فى بوهيميا الاعتراف بسلطة مجمع كونستانس فيما يتعلق بتناول القربان المقدس ، لم يعتمد البابا أوجين ومجمع بال هذا القرار ولم يفرضا على الجماعة المذكورة الخضوع ، بل أجلا المسألة إلى حين إصدار قرار آخر من الكنيسة . ترى ما رأى بوسويه فى قوة سابقة مثل هذه؟ أليست نفس الحالة التى نحن فيها اليوم ؟ « احكم يا سيدى ، إذا كانت غالبية الشعب الألمانى لا تستحق على الأقل جميلا أو معروفا مثل الذى ناله البوهيميون . . . »

وأخيراً وصل هذا الرد الذى طال انتظاره ؛ وصل فى شكل بحث يتبع كتاب مولانوس Molanus « الأفكار الخاصة عن طريق التوحيد بين الكنيسة البروتستانتية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية » ، نقطة فنقطة ، ويستنتج بدوره . ويقول بوسويه فيه إن المنهج المعروض مرفوض لا يمكن قبوله، لأنه منهج تعليق ، يرمى إلى قبول التسكين والتوفيق قبل الاتفاق على المبادئ ،

---

(١) رسالة فى ١٧ يناير ١٦٩٢ .

(٢) الكاليكستيون : Calixtins أشياع جان هوس فى القرن الخامس عشر . وجان هوس زعيم إصلاحى ولد فى بوهيميا وأحرق حيا بأمر صدر من مجمع كونستانس فى عهد سيجزموند امبراطور ألمانيا ، بالرغم من أن هذا الامبراطور كان قد أمنه على نفسه . [المترجمان]

وإن المنهج الوحيد المقبول هو المنهج البيانى ، الذى يعرض المبادئ قبل التعرض للوقائع . أما البدء بمصالحة فى الناحية العملية ، ثم استدعاء مجلس للاتفاق الودى على المذهب ، ثم الوصول أخيراً إلى مجمع يحكم فيما تعذر الاتفاق عليه ، فهذا هو الخطأ كل الخطأ ! يجب أولا عقد مجمع يتقبل توبة البروتستنت ، وبعدئذ ننتقل إلى التوفيق . وإلا فاننا نتنازل مقدما فى المسألة الأساسية وهى : إذا كان البروتستانت يريدون العودة إلى الاتحاد الرومانى قبلما يخضعون ، فهم إذن لم يعترفوا بخطئهم ، وبذلك يرفضون الاعتراف بسلطة الكنيسة ؛ وهنا كل المسألة .

الواقع أن المنهج يتضمن الأفكار التى يتكون منها جوهر الجدال . فالكنيسة معصومة من الضلال ، وما قرره مجمع ترانت يسرى إلى الأبد . أما القول بأن فرنسا لم تعترف بصفته « العمومية » فتعسف باطل ، لأن رفض فرنسا لا يتعلق إلا بحقوق الصدارة والأولوية ، وبالامتيازات ، وبحريات وعادات المملكة دون أدنى مساس بمسائل الايمان .والاستشهاد بمثل الكاليكستيين تعسف باطل بالمثل : فالفحص الذى وعدوا به فى بال لم يكن يرمى إلى إعادة النظر فى قرار مجمع كونستانس ، بل لتأييد هذا القرار بايضاحه . ومادام ليبنتز يسأل صراحة عن قوم مستعدين للخضوع لأحكام الكنيسة ولكن لديهم أسباب تدعوهم إلى عدم الاعتراف بعمومية مجمع من المجامع ، أيجب أن نعدهم ملحدين ؟ — فان بوسويه يجيب بنفس الصراحة : « أجل أولئك ملحدون ، أجل أولئك عنيدون . » وعلى ذلك يجد ليبنتز أنه لا جدوى من الدفاع . ويرد بأنه قول عجيب ، أن يقال « كانوا بالأمس يعتقدون ذلك ، إذن ينبغى اليوم أن نعتقد كذلك » . ولا جدوى من استشهاده بالسوابق ، فليس فيها غناء . إن بوسويه أقام أمامه جداراً يرى أن لا ثغرة فيه ، وأوشك الجدال أن يتوقف .

إلا أنه استؤنف . وقد زالت شخصيات الصف الثانى إذ أقصاها الموت ؛ وبقى بوسويه وليبنتز وبذا بقيت بارقة من الأمل . فى ٢٧ أغسطس من عام ١٦٩٨ عاد ليبنتز فكتب فى دير لوكم « مشروعاً لتيسير الاتحاد بين البروتستانت والكاثوليك » ، اختتمه بابتهال مؤثر إلى الله . واستأنف مراسلاته مع بوسويه . ولكن بقيت الأدلة والحجج على ما هى عليه — إلا واحداً .

فان إصرار ليبنتز على إثبات خطأ الزعم بأن الكنيسة لم تتبدل أبداً ، استدعى التعرض لمسألة صحة الكتب المقدسة . فقد لاحظ أن الكنيسة الحالية ترى صحة كتب كانت الكنيسة القديمة ترى صحتها محل شك ؛ إذن فقد حدث تبدل فى التقاليد . . . واستمر الجدال عنيفاً دقيقاً حتى اللحظة التى أصبح موت بوسويه فيها وشيكا ؛ وأصبحت الرسائل المتبادلة بحوثا مطولة حتى إن أحدها تضمن ١٢٢ بابا ، ولكن أهناك حاجة للقول بأن ليبنتز ، باثارته الارتياب فى صحة الكتب المقدسة — قد خرج على وسائل المصالحة ؟

***

وواصل هذان العاملان العظيمان ، اللذان لم يقعدهما يوما تعب أو ألم ، عملهما إلى النهاية ، كل طبقا لقانونه . استعمل ليبنتز ذكاءه المرن الخارق ، وقدرته الدبلوماسية ، فقد ابتدأ بالحذر واللباقة : لأن الأمر — على حد قوله — لم يكن أمر نزاع أو تأليف كتب ، بل تعرف المشاعر والآراء ، وقياس القوى . وأخذ يتحمس رويداً رويداً ، فقد عيل صبره إزاء مقاومة عنيدة لم تنجح إرادته الطيبة ولم تفلح عبقريته فى التغلب عليها ، وأخذت لهجته تشتد فيتكلم عن « السخافات » ، وينعى على بوسويه التواء أساليبه ، وميله إلى التضليل ، والتجاءه إلى التهويل ، فبدا أسلوبه مشوبا بشئ من الحسرة والمرارة . إن هذا الأسقف مفطور على العناد ، فالأفضل أن نشرك معه بعض المدنيين وأن نأتمر معهم . فلأولئك الأكليريكيين نظريات خاصة وآراء مغرضة . أما هو فلا يروم إلا التوفيق والمصالحة . إن ذاكرته الفذة دائما متأهبة لأن تمده بأمثلة يستطيع الحاضر أن يهتدى بها . وتفكيره دائما يحمله على أن يكتشف فى المتناقضات أوجها للاتفاق ، وأن يختزل الصعوبات ، وأن يخلق الانسجام . وعنده من الروح السياسى أكثر مما عنده من الروح الدينى ، فالرهان فى نظره من الأهمية بمكان ، وهو حقيق بالاغضاء بعض الشئ عن قواعد المباراة . نقطة واحدة هى التى لا يمكن أن يغضى عنها ، وصحيح أن هذه النقطة تجر الباقى وراءها : الحق فى حرية البحث والفحص ، ورفض الخضوع لسلطة دجماطيقية تحكمية . وقد شعر بحزن وألم لاخفاقه فى محاولاته ، ولم يتخل دون حسرة ، عن المشروع الذى كان ينتظر منه خيراً عميما لأوربا وللانسانية

جمعاء . ويخيل إلينا أننا نشتم أيضا رائحة الحسرة . ولوم الآخرين ، فى تكراره العنيد لهذه الفكرة « تسجيل براءته من مسئولية ما قد يجره الشقاق على الكنيسة المسيحية من شرور وويلات . » — « وعزاؤنا أننا لم ندخر وسعا فيما اعتقدنا أنه واجب علينا ، ولن يستطيع امرؤ أن ينعى علينا الشقاق ، وإلا كان هذا هو الظلم المبين . » — إن الكنيسة الرومانية « هى سبب الشقاق، وهى التى تجرح الشقة التى هى روح الوحدة . »

وبوسويه أرهف حساسية إلا أنه يخفى تأثره . فاذا هو أهان ليبنتز بوصفه بالالحاد وبالعناد ، وإذا شكا ليبنتز من هذه التهمة ، فهو يأسف ويحزن ولكنه يقول : لو لم أتكلم بتلك الصراحة التى طالبنى بها ليبنتز ، لاتهمنى بالالف والدوران . وهو يرد على المؤاخذات بتواضع برئ : « إذا تفضلتم بتبيان الأسباب التى تدفعكم إلى الظن بأنى لم ألب رغبتكم ، فانى أؤكد لكم أنى سأقوم بتنفيذها بتمامها دون نظرة منى إلى يمين أو شمال ، بل بكل استقامة النية الطيبة التى يمكنكم أن تتوقعوها من رجل لم يجد يوما سعادة أوفر من الاشتراك مع رجال بمثل هذه المقدرة وهذا الشرف ، فى علاج جراح الكنيسة التى ما فتئت تنزف بفعل الشقاق الذى يؤسف له أشد الأسف . » إن الفكرة التى راودت ذهن ليبنتز وهى : تكليف الأسقف الكاثوليكى سيبنولا بكتابة مذكرة تعرض وجهة نظر البروتستانت ، بينما يكتب هو مذكرة بوجهة نظر الكاثوليك، فكرة لم تكن لتتولد يوما فى ذهن بوسويه . فليس للحقيقة وجهان . بل الحقيقة واحدة لا تتغير . وهى أيضا أبدية . فهو يتمسك بالمبدأ الذى غذى فكره ، والذى هو ناموس روحه ، والموجه لنشاطه وحياته : لا تثبت إلا بما يبقى ويثبت .

وهو يرى — بقلب أقل حزنا لكن فى غير ضغينة أو مرارة — إبعاد هذا السراب الذى لم يفتنه كثيراً فى يوم من الأيام . فالروح الدينى عنده يتغلب على الروح السياسى . فهو يعرف أن رفض المصالحة هو رفض إعادة السلام الروحى إلى أوربا . ذلك السلام الذى لم تكن يوما فى حاجة إليه أكثر مما هى الآن . لكن إذا لم يكن بد ، للتوصل إلى هذه الوحدة ، من الاعتراف بأن الكنيسة الكاثوليكية عرضة للخطأ ، وأنها أخطأت فى أحكامها ، وأدانت وطردت بغير حق ، وأنها تناقض نفسها وتتغير — فان ذلك يكون قضاء على مبدئها بالذات . فأى ثغرة تصيب السلطة ، تجر وراءها الكفر يتوالى فى إثر

الكفر ، وتؤدى إلى دمار معبد اليقين . فاختار بين النظريتين : فليبق المنشقون فى ضلالهم ، ولتبق الكنيسة كشجرة راسخة عتيقة لم تفقدإلا فرعاً واحداً جافاً .

***

وانتهى به الأمر فيما بعد ، فقد عمر طويلا ، فهو شيخ عجوز . ويتخلى عنه الناس حتى أولئك الذين كان عليهم أن يؤازروه . وهو يشكو من حصاة ولذا يتألم ويتأوه . وعندما يتيح له مرضه لحظة راحة ، يركب فى محفته ويلتجئ إلى الملك ، الذى كان يستمد منه القوة والشجاعة فيما سبق : ولكن الملك كان بالمثل يجنح إلى الغروب ، ولا يستطيع أن يأتى بمعجزة ليعيد الشباب إلى الذين أصبح اقترابهم من القبر وشيكا .

وقد كان يقاوم المرض الذى يضنيه ، « يقف على رجليه بصعوبة » فى تهالك مؤثر ، ليحاول تأدية فروض الاحترام للسيد . لا يرى الناس سواه فى فرساى . ورجال البلاط يسخرون من هذا الشيخ المحطم ، المضحك المزاحم . ومدام دى مانتنون القاسية تهمس «أتراه يود أن يموت فى البلاط ؟ » . وفى عام ١٧٠٣ ، فى حفلة عيد صعود العذراء التى أراد أن يحضرها ، كان موضع مشهد أليم جعل الأصدقاء يحزنون له ، والمحايدين يعطفون عليه ، وعجائز البلاط يسخرون منه . وكانت مدام دى مانتنون تسر إليه على طول الطريق « شجاعة يا سيدى فسنصل عما قريب » . ويقول الآخرون « آه . . . يا للسيد المسكين ! » ، ويقول غيرهم « لله دره ! » ، بينما تقول الأغلبية « ترى لم لا يذهب ليموت فى منزله ؟ (١) . »

ولم يكن ليبنتز أسعد حالا . فهو يواصل أحلامه . إنه يفكر فى تحويل الصين إلى المسيحية ، لا بايضاحه للصينيين أنهم على خطأ ، بل بتبيان أوجه الشبه بين ديانتهم وبين المسيحية ، مستعيناً بفكرة الوحدة الجوهرية للفكر البشرى . ولكن الحقيقة الواقعة تخيب ظنه ، لأنها ليست مادة يشكلها المرء على هواه ، ولا يستطيع الفكر أن يبدلها بغير مخاطرة ، إنها تقاوم مقاومة لا تغلب . لقد ضاع الأمل ، فلا لغة عالمية إذن ، ولا وحدة للكنيسة ، كل

---

(١) جيرو ؛ بوسويه ، ١٩٣٠ ص ١٣٩ ؛ V. Giraud, *Bossuet*, 1930

هذه المشروعات لا طائل من ورائها ، إن هى إلا ظلال يتعذر الوصول إليها .

لقد وصفه فونتنل كبطل ظافر حينما أطراه أمام مجمع العلوم بباريس (١) : « ما أشبهه بأولئك القدماء الذين أوتوا من المهارة ما يمكنهم من سياسة ثمانية جياد مجتمعة مشدودة إلى عربة ، فقد أجاد دراسة العلوم مجتمعة . » كما وصفه أيضا من ناحيته الانسانية : « كان دائما السيد المطلق فى منزله ، لأنه كان يتناول الطعام دائما وحده . ولم ينظم وجباته فى أوقات معينة ، ولم يعش حياة بيتية ، بل كان يستحضر من أى بدال ما يجده عنده للغذاء . وكان ينام أغلب الوقت مستلقياً على مقعد ، ومع ذلك كان يستيقظ مبكراً موفور الراحة مكتمل النشاط . ثم يبدأ على الفور فى الدراسة ؛ وعاش أشهراً بتمامها دون أن يترك مقعده . . . » وكلما تقدم العمر بليبنتز تجلت حقيقة هذه الصورة . إنه يعيش وحيداً . تخلى عنه أولئك العظماء الذين كان يعتمد عليهم فى تنفيذ أغراضه . — ولما أصبح « منتخب هانوفر » ملكا على انجلترا فى يناير من عام ١٧١٤ ، رفض الناس خدمات ذلك الشيخ المريض . ولما كان لا يتردد على المعبد ولا يقترب من القربان فقد عدوه ملحداً وخاصمه الرعاة . وتوفى فى ١٤ نوفمبر من عام ١٧١٦ ؛ فدفن بغير احتفال ولا شهود ولا شفقة : « كأنهم يدفنون قاطع طريق ، لا رجلا كان فخر وطنه » .

فلنحلق فى سماء الخيال — لقد مرت لحظة بدت فيها وحدة الكنيسة وشيكة التحقيق ، لحظة من اللحظات التى « قل أن يجود بها عصر بأكمله » . « إن يد الله لم تنقبض » ، هذا ما دبجه ليبنتز إلى سدام دى برينون فى ٢٩ سبتمبر من عام ١٦٩١ ؛ — « إن الامبراطور يميل إلى التوحيد ، والبابا إنوسنت الحادى عشر وجماعة من الكرادلة ورؤساء الكنيسة ، ورئيس القصر المقدس ورجال اللاهوت ، قد أبدو آراءهم فى هذا الموضوع ، بعد قتله دراسة ، بشكل يدل على تمام التأييد والتحبيذ . ولقد طالعت بنفسى نص الرسالة التى كتبها الأب نواييل الرئيس العام لجماعة الجيزويت والتى يستحيل أن تكون أدق

---

(١) عين فونتنل سكرتيرا دائما لمجمع العلوم فى باريس وقد كتب بصفته هذه مقالات تقريظية رائعة عن أعضاء المجمع السابقين . [المترجمان]

وأوضح من ذلك ، ويمكن القول بأنه إذا كان ملك فرنسا والأساقفة ورجال اللاهوت الذين يشير إليهم ، ينضمون إلى هذا المشروع ، فسيكون ممكن التنفيذ بل وشيك التحقيق . وهكذا تتحقق الوحدة ، وتستصلح الكاثوليكية، وتعود البلاد الجرمانية واللاتينية إلى اتحادها الروحى الوثيق ، وتنضم الأراضى الواطئة وانجلترا بدورها إلى كنيسة روبانية وإصلاحية فى نفس الوقت ، ويقاوم المؤمنون ، كل المؤمنين ، قوات التفرقة والتشتيت التى تهدد الايمان » .

ولنهبط الآن إلى ميدان الواقع . نجد البروتستانت والكاثوليك يعجزون عن الاتفاق ؛ لقد سنحت السانحة المناسبة ، وأخفق أمهر الرجال وأكثرهم عناية وسهراً فى المهمة التى أخذها على عاتقه ، وابتهج أعداء المسيحية وانتصروا . فما أشد الدمار ، وما أكثر الخراب !

يريد البعض إبدال إله إسرائيل وإسحق ويعقوب باله مجرد ، هو فى جوهره نظام الكون ، ولعله الكون نفسه . وذلك الاله المتخيل لا قدرة له على المعجزات . إن المعجزات تنم عن أهوائه أو تكشف تناقض أفعاله ، وبذا فهى لا تؤيد وجوده بل تنكره . ولم يعد للسلطة قيمة ، أما التقاليد فكاذبة ، وأما الارتضاء العالمى فلا يمكن إثباته ، وحتى إذا أمكن إثباته، فلا شئ يمنع من أن يكون سلطخا بالضلال . وشريعة موسى لم تعد تقدر الكلمة التى أملاها الله عليه فى جبل سينا وسجلت بتمامها على الفور ، بل هى قانون بشرى ما زالت فيه آثار للشعوب أورثتها العبريين ، وعلى الأخص آثار المصريين . والكتاب المقدس لا يفترق عن غيره من الكتب ، فهو حافل بالتزوير زاخر بالتبديل والتحوير ، لا يعدو كونه عدة أضابير ضم بعضها إلى بعض بوساطة أياد غير ماهرة ، وبفعل عقول غير صقيلة لم تعن بالتواريخ ، حتى لقد أخذت البداية على أنها النهاية فى بعض الأحيان . فلم يعد الكتاب المقدس يبدو إلهياً . وجعلت السلطة الملكية تفقد أيضاً صفتها الالهية. وأعلن الناس ضدها الحق فى العصيان. وأبدلت علامة الايجاب بعلامة سلبية فى كل مكان . ولما توفى لويس الرابع عشر ، كان الابدال يبدو وشيك الاكتمال .

وما من شك فى أن العقائد التى كان يستند عليها المجتمع القديم ، وعلى الأخص المسيحية ، لم تتعرض يوما لمثل هذا الهجوم . فى عام ١٧١٧ يستسلم

سويفت (١) لنوبة من السخرية التى اعتادها فيقول : « إنه لخطر وحماقة أن نتكلم ضد إلغاء المسيحية ، فى زمن أجمعت فيه كل الأحزاب على القضاء عليها ، الأمر الذى يثبتونه قولا ، وكتابة ، وفعلا . فالدفاع عن المسيحية ، وتبيان أن إلغاءها لا يتم إلا لقاء بعض المحظورات ، ولا تنجم عنه العواقب الطيبة المرجوة ، لابد من أن يكون مشروع عقل شاذ . . . » إن كلمة سويفت هذه ، تترجم عن اضطراب الضمائر المسيحية ، عندما تشاهد نتائج حركة تخريبية طالت خلال سنين ، حركة لم تشن هجمات صغيرة خفية ، بل هاجمت علنا ، فى وضح النهار .

إلا أن أوربا لا تحب الخرائب ؛ بل هى لن تحتملها أبداً إلا كنزوة عارضة ، تجعل منها زينة لحدائقها ومغانيها ؛ لا لشئ إلا لتبرز ، بتناقضها ، روعة نماء الأشجار ونضرة الأزهار . لقد توقف أكبر الارتيابيين ، من بين العقول التى تتبعنا نشاطها ، أمام خطر الانكار المطلق nihilisme ، الذى كاد يوقعهم فيه شكهم . إنهم لم يتذوقوا « تلك الراحة التامة ، بالنسبة للارادة أو بالنسبة للادراك » ، الراحة التى كان « بيرون » يرى فيها الحكمة والسعادة (٢) : فاذا كان عقلهم قد مال بهم فى بعض الأحيان إلى جانب أسباب التفنيد le contre أكثر مما مال إلى جانب أسباب التأييد le pour ، فان إرادتهم مع ذلك لم تضعف ولم تستسلم . فلقد أعلنوا جميعاً أنهم لم يدمروا البناء القديم إلا ليشيدوا بناء آخر ، قد رسموا مشروعه ،ووضعوا أساسه ، وأقاموا جدرانه ، إبان قيامهم بعملية التدمير . تدمير ، وفى نفس الوقت إنشاء من جديد . فاذا نحن أردنا أن نتم فهم الرجال الذين عاشوا وسط هذه الأزمة الخطيرة ، فعلينا أن نراهم الآن فى محاولتهم الانشائية الايجابية .

---

(١) ج . سويفت : برهان يثبت أن إلغاء المسيحية فى انجلترا قد لا يحدث ، فيما نحن فيه من ظروف ، إلا لقاء بعض المحظورات . وربما لا تنجم عنه العواقب الطيبة المرجوة منه فى عام ١٧٠٨ ، J. Swift, an argument to prove that the abolishing of Christianity in England may, as things now stand, be attented with some inconveniencies, and perhaps not produce those many good effects proposed thereby. written in the year 1708.

(٢) موريرى ، القاموس ، باب بيرون Pyrrhon .